مجموعة
قصصية

النافذة

خالد محمد عبد الله

الطبعة الأولى
الكتاب : النافذة
المؤلف : خالد محمد عبد الله
تصنيف الكتاب : شعر
تصميم وإخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٧٧٧٠ / ٢٠١٥
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 776 - 158 - 1

دار يسطرون

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع

طباعة وتوزيع الكتب فى جميع أنحاء العالم
المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت -محطة المطبعة
شارع الملك فيصل - الجيزة
جمهورية مصر العربية
٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
مدير الإنتاج : أحمد عبد الحليم
المدير العام : أحمد فؤاد الهادى
رئيس مجلس الإدارة : عماد سالم
بريد إليكتروني : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إلى الكتابة، التزاماتها ومتعتها

إلى أهل الكتابة ومريديها

إلى نفسى مؤيداً ومشجعاً على الاستمرار

أهدى هذا الكتاب

المؤلف

الفقراء

تسرب للطريق العام كلب أجرب، سكن على الرصيف...، وعند اقتراب عربة كارو فقيرة عليها تكثر نساء عجاف بملاءات سوداء وبأيديهن عيدان القصب توجه إليها، ولم يتخل عن الرصيف، ارتفع خطمه، نبح بشراسة، ازداد هياجه عندما هوشه العربجي بعصا، لم يتوقف الكلب إلا عندما ابتعدت العربة، ازورت عيونه، اتجهت نحو السيارات المسرعة في عرض الطريق التي يمكنها إذا ابتعد عن الرصيف أن تدهسه أو تصيبه إصابةً شديدة، ارتعش جسده، بدا واضحاً خوفه من القوة والغنى المتمثل بكيانات السيارات، كرر هياجه مع رجل فقير متهالك يحاول جاهداً الإسراع وقدماه تتناوبان الارتفاع والانخفاض على بدال عجلته، وعندما ابتعد الرجل اهتز ذيل الكلب فرحاً، وكان لا يزال على الرصيف، انتظر....، ولما طال الزمن التفت خلفه، ثم تحرك تاركاً الطريق العام، ارتد لحارة فقيرة ضيقة اعتادت الأجساد البشرية أن تتدافع فيها، وأن تتعارض الحوائط المائلة فيما بينها.

الصورة

الصورة القاتمة معلقة على الحائط الأيسر، فيها أبى بلا ملامح محددة، أنا أمامها أرغب فى البكاء، ولا أستطيع.

لا أعرف كيف تراءى لى أبى شاباً، يمسك شمعة مضيئة، يرسم على الصورة، فينعكس على زجاجها حلوى وكرة، ألتقط الكرة، أقذفها له، يلاعبنى، يهدينى الحلوى، ثم يدفعنى إلى كراساتى المتناثرة على المنضدة لأذاكر.

لا يزال خارج الصورة، تغير كثيراً، يأمرنى صوته الغليظ بما يجب أن أفعله وبما لا يجب، وهو يقبض على أصابع يدى، يضغط بشدة، أحس بعظامها تكاد أن تتفتت، ترتفع عيونى مستعطفة إليه، فأرى المشيب وقد غزا شعر رأسه.

أنا وهو معاً، طال جسمى وكاد أن يزيد عنه، وهو لا يزال فى قسوته واستغبائه، وضياء الشمعة يرتعش ويرتعش، وانا أحدق فى وجهه الذى يبدو غريباً لى.

هو بمواجهتى، لا شىء يفصل بيننا سوى الصمت، والشمعة لا يتبق من فتيلها سوى ملليمترات وتنتهى.

بالرغم من كل شيء أحب هذا الرجل، لا أعرف لماذا أنا على يقين من ذلك !

تذوب الشمعة، وللصورة المعلقة على الحائط الأيسر يعود أبي، يقبع داخل إطارها في استسلام، فتبزغ من عيني دمعتان، تنزلقان على الخدين، تتعلقان بالشفاه كندى الصباح. أتجه للصورة، أنقلها للحائط الأيمن، أحدق، أجدها بيضاء، وبالقلب يبدو وجهه جلياً رائقاً، فابتسم.

الكرة

أقول لنفسى: يفعلها بطريقته.

وأقول: ولدٌ خائبٌ!

فى الشارع ولدٌ صغيرٌ يتابع ولداً أكبر وأطول فى محاورة معه بكرة، الصغير يلعب بعناد، عيونه لا تهتم بالأقدام بل تتعلق بالكرة، قفزاته القصيرة تتوالى وراء الولد الطويل، لا بد وأنه سيفوز بالكرة التى تتلاعب قدما الولد الطويل كثيراً حولها فى محاولة لخداع الصغير، الولد الطويل يعتقد بأنه سيُعجز الصغير، لأنه الأكبر والأطول، هكذا يعتقد!

فى نفس هذا الشارع كنت ألعب من قبل.

نور أبيض يلمع، يطفق لمعانه...، يخطف بصرى، تدريجياً تظهر لى أشياء بتفاصيلها...، ويكون المشهد. صغير أنا، ضئيل الجسم، أعيش بالحى الذى تكثر فيه المدارس التى توجد فى ساحة كل منها علم الجهورية العربية المتحدة عالياً فوق صاريته يخفق بلا هوادة، ونحن نتعجب من التيارات الهوائية المستمرة التى تجعله هكذا، ويعلو صوت أحد الأقران (الولد شهدى) مجلجلاً عند تحية الصباح فى مدرستنا: الأمة العربية أمة واحدة، بل ويذكر كثيراً فى

حواراتنا نفس الكلمات. ويتوفر لنا وقت كافٍ للتعلم فى مدارسنا والمذاكرة فى بيوتنا، ونحظى أيضاً بوقت كافٍ للعب، ونتكلم عن الكثير من الأشياء، عن جاجارين رائد الفضاء والقوة الهائلة للقنابل الذرية..... حينها أحلامنا بالنبوغ والتفوق لا نهاية لها، وتبعث فينا النشوة، إلا أنه لن يستطيع منا إلا نسبة صغيرة تحقيقها، نسبة صغيرة فقط، نحن لا نعلم بأن لن يكون المصير لأغلبنا سوى المكوث وراء المكاتب بالعمل الحكومى والكسل وضعف الجسد وترهله وقبض المرتب نظير التوقيع بدفاتر الحضور والانصراف.

فى اللعب أنا أجرى وراء الكرة، زملائى يلعبون بشراسة، أنا أصغر وأضعف بنية، إلا أننى ألعب بشراسة أكثر، هتافنا وصراخنا يعلو ويجلجل بالفرحة التى تنعشنا، الرغبة فى الاستحواذ على الكرة وإحراز هدف تشتعل فى نفوسنا، لا تهدأ، وفتاتى فى شرفتها بالدور العلوى من عمارتنا تحاول أن تخفى ابتسامتها كلما أحرزت أنا هدفاً، وتحرك يدها اليمنى فى حركة تكاد لا تبين مشجعةً لى. الكبار فى الشارع، وفى الشرفات والشبابيك يحاولون أن يظهروا لنا عدم الاهتمام، تبعد عيونهم عنا، لكن كل حين يخطفون النظر نحونا بعيونهم التى تلمع فاضحةً سعادتهم بنا، ثم يعودون لحالة عدم الاهتمام والانشغال الظاهرى عنا. نحن نلعب، الكرة مجرد لعبة تستحوذ على طاقاتنا، وتطلق رغبتنا فى المنافسة والصراع، لكن الأمر لا يتعدى أن يكون لعبة.

يختفى النور الأبيض، المشهد يتلاشى، فأدرك بأن ذلك

الأمـر كان فـى الماضـى، للأسـف.

أعـود لحالتـى، كبـيرٌ أنـا، خطواتـى بطيئـة فـى نفس الشـارع بالحـى الـذى نقضـى بـه أيامنـا، ولا تـزال المـدارس فيـه، لكـن اُستبدلت الأعـلام القديمـة بالعديـد مـن أعـلام أخرى ليسـت سـوى مـزق قمـاش بألـوان عـدة، أعـلام لا نعـرف معناهـا، وقـد كفـت التيـارات الهوائيـة عـن تحريكهـا، فأصبحـت جميعهـا منكسـة.

والولـد الطويـل يلعـب فـى نفـس الشـارع الـذى كنـت ألعـب فيـه، أقدامـه تتلاعـب بالكـرة لكـن ليـس فـى مهـارة، حركتـه فيها خلـل مـا، الكـرة عندمـا يركلهـا تندفـع فـى قـوة غـير محسـوبة، يضطـر أن يجـرى الولـد الطويـل نحوهـا مسـرعاً كـى يلحقهـا، عندمـا يحـاول أن يوقفهـا لا يتمكـن، فيركلهـا بقـوة أكثـر لترتفـع فـى الهـواء فـى اتجـاه غـير متوقـع، وهكـذا، وفـى الـدور الأول مـن العمـارة القريبـة فتـاة معروفـة بمرضهـا النفسـى تقـف فـى الشـرفة ظاهـرةً للعيـون، وهـى تشـير لولـدٍ يقـف فـى شـباك للشـقة الموجـودة بسـطح العمـارة المواجهـة، تتفـق معـه علـى ميعـاد للقـاء.

الولـد الطويـل فـى الشـارع يضحـك، ويعلـو صوتـه مادحـاً نفسـه: يـا حريـف.. يـا حريـف، الصغـير الـذى يلعـب معـه لا يـكل أو يتعـب، إرادتـه واضحـة، سـيأخذ الكـرة، لكـن لا تواتـه فرصـة الفـوز بعـد، والطويـل تتـوالى كلماتـه فـى زهـو: سـأصبح لاعبـاً كبـيراً.. سأكسـب الكثـير.. سـيكون لى الكثـير مـن المعجبـات الفاتنـات.....، الولـد الطويـل والكـرة علاقتهمـا ليسـت لعبـة، إنمـا أحـلام يقظـة هـو ليـس بأهـلٍ لهـا.

ويستحوذ الصغير على الكرة من الولد الطويل، يركلها نحو المرمى، يحرز هدفاً، وينال الفوز، وفى المقابل الولد الطويل يغتاظ، يجرى وراء الكرة بعد أن تجاوزت حد المرمى، يجرى خارج نطاق اللعب، يركل الكرة بطريقة عشوائية وبقوة شديدة، فترتفع الكرة بالهواء، لتخبط فى جدار، ويكون ذلك بالقرب من شباك تطل منه سيدة مسنة. هذا الولد الطويل يصبح وجهه بلا تعبير، يتجه للرصيف فى بطء....، الولد الطويل يترك الكرة، يترك المنافسة مع الصغير، عيناه تزوغان...، تتوقف عند (إنترنت كافيه) بواجهة زجاجية يظهر من خلالها طفل واحد يلعب على كمبيوتر، وبدون مقدمات يسرع الولد الطويل ليدفع باب (الكافيه)، يدخل، يجلس أمام كمبيوتر للحظة وأخرى...، ثم يقوم، يطل برأسه من خلال فتحة باب(الكافيه)، لينظر للسيدة المسنة، ثم يعود ليجلس، بلا أى شىءٍ يعمله، وهو يتلفت برأسه. والسيدة المسنة من لحظة أن خبطت الكرة بقربها لا تنبس بكلمة، تجهم يرتسم بمحياها، عيناها لا تفارقان الولد الطويل، حتى بعد أن اختفى عن رؤيتها ودخل (الكافيه)، لا يعجبها ما فعله، إنها تعلم ما أصابه، انهزم، فترك المنافسة، واعترته شراسة ورغبة فى الانتقام، فركل الكرة بقوة، فكانت فى اتجاهها، هكذا انتقم!

وأنا أكرر القول: ولدٌ خائبٌ!.

وابتعد عن المكان، وإحساس بالضيق ينبعث فى نفسى.

الوردة الجبلية

فجأة دخل إدارتنا سامى الذى يعمل بإدارة أخرى تقع حجرتها فى الجانب الآخر من الممر الممتد بالدور الذى نعمل به فيقسم حجرات الإدارات على صفين متعاكسين، اتجه فى سرعة نحو مكتبى، اتسعت عيناه بشدة، أدرك ولابد أنه سيرتطم فى قسوة بخشب مكتبى، وقد نجح، استطاع الوقوف عندى، وكان جسده يهتز. سامى ذلك الزميل الطويل الذى يُرى دائماً حليق الذقن والشارب، يواظب على ارتداء البذلة والكرافتة، وسمعته مرات يتباهى بأناقته.

سألني: أتعرف محلاً يبيع الكرافتات؟

: أعرف واحداً بوسط البلد.

: كيف عرفته؟

: أنا أسكن بالقرب منه، اعتدت أن أتفرج على مبيعاته من خلال زجاج العرض، ثم أصبحت لا أشترى الكرافتات إلا منه، هذا المحل متخصص فى بيع الكرافتات.

: هل ما يبيع من كرافتات تخطف الأبصار؟

تخطف الأبصار! جراء تعجبى من كلماته تلعثمت وأنا أقول : طبعاً.

وقلت أيضاً بأن هذا المحل سيجد عنده ما يطلبه.

ثم قال: نذهب بعد الانصراف من العمل للشراء، هل توافق؟

: لم لا.. نذهب.

فقال: حسناً، هكذا يمكننى العودة إلى بيتى قبل حلول الليل.

: أين تسكن؟

فكان رده الذى أدهشنى بأنه يقيم فى مدينة تبعد كثيراً عن القاهرة، ثم اتجه للخروج من الإدارة، توقف عند الباب، جسده كان ما بين أن يكون بالممر وبين داخل إدارتنا، وأخذ ينتقل ببصره بين الزملاء والزميلات فى الحجرة، ثم ابتعد. فجأة غزت العتمة المكان، كان انقطاع التيار الكهربائى، استمر لفترة طويلة....، عندما عاد ارتفعت الضحكات، وكثرت الكلمات عما حدث بأصواتنا الصاخبة، وعندما قال أحد الزملاء متندراً بأن السبب فيما حدث هو الأستاذ سامى، لا نعرف لماذا أصابنا الصمت للحظات..، ثم عدنا لما كنا فيه لكن بأصوات أهدأ.

في الطريق أنا وسامى الذى كان يمسك بشنطة بلاستيكية ضايقتنا برودة بالرغم أن الفصل كان صيفاً، أصابتنا بقشعريرة،

انكمشت أجسادنا داخل الملابس الخفيفة، مما زاد الأمر سوءاً أن قرص الشمس كان مختبئاً وراء سحب منتشرة فى السماء فحجبت الكثير من الأشعة النورانية. اقترحت عليه أن نركب ميكروباس لوسط البلد، فهو أسرع وسيلة.

رد: نركب الأتوبيس..ما الداعى للاستعجال!

كدت أن أسأله هل غرضه توفير النقود، حرص أو تهذب جعلنى لا أتفوه بشىء، وكان الأتوبيس وسيلة مواصلاتنا.

من بين الأجساد المتلاحمة فى الأتوبيس لم يتوقف الكلام بينى وبين سامى، إنى لا أعرفه معرفة وثيقة، إنه زميل، أحييه كلما جمعتنا الصدفة، تبادلنا كلمات قليلة فيما بيننا، لذلك تجاذبت معه الحديث فى الأتوبيس لأعرفه أكثر، وامتنعت عن عادتى التى أحبها. من عادتى عندما أسير فى الطريق أو أستقل وسيلة مواصلات أن أتطلع إلى ملامح ووجوه الناس عند التكلم أو عند صمتهم، إشاراتهم بالأيدى، العيون، تعبيرها، تحديقها، لمعتها، حركة الشفاه، الحاجب على العين عندما يرتفع دهشة أو استفساراً، أقول لنفسى بأن هذا شخص ذكى، وهذا يحاور ويناور من معه، وهذه تتلاعب بكلماتها فى شقاوة العمر الصغير...، يعجبنى أن أستشف نفوس الناس. يعجبنى أيضاً أن أستشف الروح التى يتمتع بها كل حى، فكل حى له روح لا مثيل لها، فهذا الحى الشعبى أسير فيه، يرمقنى بشبابيكه وأبوابه المشرعة التى تكتظ بأجساد بشرية وحيوانات، العيون تلاحظنى وأنا أخطو على

الطريق مقتحماً عالمهم، يعرفون أنى غريب، ويتساءلون فيما بينهم: هل أنا عابر مصادفةً أم لى مآرب أقصدها؟ هذا الحى الشعبى أرى فيه بيتاً أصفر يبدو من مدخله بئر السلم الذى ينبعث منه صوت أنثوى مائع وعدة أصوات رجولية، ويخرج من هناك شاب نحيل يلبس قميصاً أحمر، وتمتد يد عريضة بشعر كثيف تجذب إياه ليعود إلى هناك، وترتفع أصوات الرجال والصوت الأنثوى مما يوحى بأفعال مستهجنة، هذا الحى الشعبى فيه روح مشاغبة لما يريده رجل مسالم مثلى، وهذا حى راقٍ فيه أذهب إليه لزيارة زميل لى أصابه المرض، به فيلا تكثر حولها الأشجار، تخرج منها امرأة متزينة، ومن خلفها يقف رجل ناظراً إليها فى حزن وهو يتلمس خاتماً ذهبياً بأصبع فى يده، وهى تعبر البوابة، ثم تنظر إلى العمارة الشاهقة التى أمامها، تثبت عيونها عند نافذة بالدور الثانى، هناك شاب يلوح لها، تبتسم، وتتقدم خطواتها، لا تلتفت للرجل الحزين خلفها، بالقرب سيارة مركونة يحاول رجل أن يفتحها عنوة، فينطلق صوت عالٍ لواحدة من تلك الآلات التى تستخدم للتحذير والحماية، وهى لا تبالى، وما تزال مبتسمة للشاب الذى عند النافذة، فى هذا الحى بالرغم من الشكل الظاهرى الجميل تكمن روح باردة متباعدة عن الجميع، وهذا حى آخر فى مركزه مسجد كبير له مئذنة سامقة، يضطر من يريد الصلاة إلى أن ينزل سلالم من درجات عدة ليستطيع الدخول إلى مبنى المسجد الواطئ، بالقرب يلعب أطفال الكرة فى حمية، فى هذا الحى بيوت قديمة متساندة باهتة الطلاء،

عليها نقوش ورسومات ذات طراز إسلامى، بأدوارها الأرضية تكثر دكاكين كثيرة مغلقة توحى بأناس عاشوا فيها من قبل كان فى قلوبهم ورع وكرم وكانوا يعملون بالتجارة، لابد أن الأحياء فيها الآن سيرحبون بالعابر الغريب. يعجبنى أيضاً الأشجار، لكن تضايقنى الشجرة التى تنمو أوراقها فى الصيف وتظهر على قممها الورود الحمراء التى تسقط مفترشة الأرض وتدوسها الأقدام فتبدو لى كدماء لا يكترث الناس بها، أتجنب أن أخطو على تلك الورود، أحس بتقارب مع من يتجنب ذلك. كل ذلك منعنى الاستغراق فيه تكلمى مع سامى.

هل أنا منعزلٌ عن الناس، ولذلك أعوض نقصى هذا بالمداومة على التفرج عليهم؟

هل أنا رومانسى مثل بطل رواية الكاتب الألمانى (توماس مان)؟

من سنوات اشتريت رواية قديمة له من على سور الأزبكية، كان بطلها يحب امرأة، يحرص على متابعتها، وهى تهذب أوراق الأشجار فى حديقتها، وهى تتسوق....، لكن لم تواته القدرة على افتعال موقف للتكلم معها، ثم البوح بمشاعره الجياشة نحوها، كل ما فعله أن تسلق جبلاً شاهقاً بالقرب من البلدة التى يعيش فيها، تحدى خطر الانحدار من فوق صخوره، كل ذلك ليأتى بوردة لا تنبت إلا بالجبال، ثم ليلاً فى الخفاء وضع هذه الوردة النادرة بإجلال أمام باب منزل حبيبته كمن يعطى قرباناً للآلهة، وتابعها بالصباح من نافذة

منزله، وقد فوجئت بها، أمسكتها أناملها في حرص، تلفتت حولها، وعندما لم تر أحداً دخلت منزلها، أوصدت الباب من خلفها، وهي ما تزال تحتفظ بالوردة الجبلية، والبطل استمر في عدم قدرته على التواصل معها، استمرت حياته، غادر بلدته، سافر لبلدان كثيرة، يحرص كل الحرص على الابتعاد عن الناس، يتأمل الأشجار والبيوت والجبال ويعاقر الخمر، ولا يكف. سحرتني هذه الرواية، وكانت مقدمة الكتاب من تأليف المترجم الذى أكد مكانة هذا الكاتب وبراعته واندراج الرواية ضمن المدرسة الرومانسية التى بزغت ببلاد الغرب، فالبطل الرومانسى جياش العواطف، لكنه لا يستطيع التعبير عنها، ينعزل عن الناس، وفى المقابل يندمج مع الطبيعة، هكذا البطل الرومانسى بالأدب كما يعرفه الغرب، وليس كما نعرف من أنه بطل يشعر بأشد انفعالات وجمرات الحب ، يستثير حبيبته بالكلام المعسول والتعبير عن أحاسيسه العميقة نحوها، أو الذى تنفلت منه العبرات والزفرات عند الفراق أو البعاد.

سمعت صوت سامى يرتفع عالياً: أتعرف عادل؟

قلت: من هو؟

: زميل بإدارتنا، ذلك البدين الذى يكاد أن يكون بلا رقبة فتبدو رأسه كأنها مدلاة على صدره، دائما ما يرتدى ملابس قديمة، اليوم جاء بقميص ضيق بالٍ مطبوع عليه خطوط سوداء متعرجة وورود بنفسجية غريبة المنظر، يبدو أنه اشتراه عندما كان طالباً، والله الجميع كانوا ينظرون إليه

فـى استهجان، ثـم يضحكـون، أنـا عكسـه تمامـاً، مـن عادتـى الاهتمـام بمنظـرى، كل موسـم أشـترى جديـداً، وأعشـق البذلـة والكرافتـة، هـذه هـى الأناقـة حقـاً.

قلـت: قـد يكون عـادل من عائلة فقيرة ينفق معظـم إيراده عليها؟

: لـه أخ دكتـور أسـنان، يعمـل فـى الصبـاح بمستشـفى، وبالمسـاء لـه عيادتـه، إيـراده كبـير، أنيـق، يشـترى روائـح غاليـة، تـزوج مـن اجتهـاده، مظهـره وذكاؤه سـاعداه.

: قد يكون أخوه يهتم بنفسه ولا يراعى والديه واحتياجاتهما.

: لا احتياجـات لهمـا، صحتهمـا جيـدة، ولهمـا إيـراد كبـير مـن أطيـان يملكانهـا، مشـكلته الحقيقيـة فـى نفسـه، وسـببها أيضـاً نصائـح والدتـه الغريبـة، هـى تدفعـه للتقـرب مـن الفتيـات، فيشـترى لهـن روائـح رخيصـة وكتـب مضحكـة عـن أهميـة الـزواج وضـرورة أن لا تطالـب الزوجـة رجلهـا بكثـير مـن الفلـوس، الفتيات يضحكـن، يتهربـن مـن قبـول هدايـاه، ويوجـد بينهـن مـن تتنصـل مـن مجـرد الحديـث معـه.

وتوقـف سـامى عـن التكلـم، ورأيتـه يحـدق فيمـا يوجـد عنـد البـاب الخلفـى للأتوبيـس. هنـاك لم يكـن سـوى شـاب قصـير يقـف علـى السـلم. أنـا وسـامى كنـا نقـف بعيـداً عـن ذلـك الشـاب الـذى كان ينظـر إلى مـا وراء الأتوبيـس باهتمـام، هـل كان يرغـب فـى النـزول مـن الأتوبيـس؟ وكان يتحـين الفرصـة المناسـبة للنـزول محـاذراً مـن السـيارات المارقـة بالطريـق التـى قـد لا تنتبـه عيـون

سائقيها للأجساد التى تتخلف من الأتوبيس للطريق فجأة، فتكون اللحظة الخاطفة، لحظة الشقاء والموت، وكانت عيون الشاب تتهرب من المحصل الذى يعلو صوته بوجوب دفع ثمن التذكرة، واستمر الحال، ما كان يحدث هناك فى آخر الأتوبيس هو الذى تملك اهتمام زميلى سامى، وجعلنى أنا الآخر انتبه إليه. وتذبذب صدر سامى بين الارتفاع والانخفاض بلا صوت، كان يحاول منع ضحكاته! ضحكاته المكتومة بدت لى أنها مفتاح شخصيته. ثم تجهم سامى، كان ذلك عندما أخرج الشاب القصير ثمن تذكرة الأتوبيس بسبب إلحاح المحصل، واستمر وقوفه على السلم، لكنه كف عن النظر إلى ما وراء الأتوبيس.

عند محطتنا أسرعنا فى النزول، بالطريق أخرج سامى من شنطته قماشاً.

قال: أريد كرافتة تناسب هذا القماش الذى سأفصله بذلة لى.

كان القماش بخطوط طولية سوداء بينها خطوط أخرى أرفع رصاصية، كان القماش ينفع لتفصيل بذلة لرجل عجوز، بالإضافة إلى أن فيها أماكن فاتحة اللون وخيوط ناشزةٌ منها، لم يعجبنى ذوق سامى.

قال سامى: حكاية هذا القماش عجيبة.

وتوالت كلماته بأن أخته تزوجت من مهندس نابغ طموح، كان يستغرق فى عمله ساعات طويلة، بالرغم من ذلك كان أجره لا يكفيه هو وأسرته الصغيرة ، واستطاع الحصول على

الماجستير، لم يزد أجره كثيراً نتيجة لذلك، ثم فتح محلاً لبيع أشياء مستوردة ولا فائدة، ثم حاول أن يحصل على وظيفة في مكان مرموق يجزل العطاء له، لكنه لم يستطع التوصل إلى وساطة تمكنه من ذلك ، محاولاته كلها لتحسين حالته المادية باءت بالفشل، لذلك شد رحاله إلى بلد أوربية، كيف استطاع أن يحصل على تصريح بدخول تلك البلد الأوربية والعمل فيها؟ جرب كل الوسائل حتى نجح.

وأكد سامى مكرراً بصوت مشروخ: الوسائل المشروعة طبعاً.

وأضاف مشيراً للقماش: هذا هدية منهما، لم أدفع مقابلها مليماً، هذا هو المهم، ولا مليم.

ثم سمعته يقول: إن المظهر الأنيق له أهمية بالغة.

وأخذ يشرح وجهة نظره، الأناقة تعطى انطباعاً حسناً لدى الناس، وهذا له فوائد عدة، وأنه يحرص على ارتداء البذلة والكرافتة وخاصةً بالأفراح فهما تجذبان عيون الناس، وخاصة عيون الفتيات اللاتى يرغبن فى الزواج.

قاطعته قائلاً: مدينتك تبعد الكثير، أعتقد أن سفرك يجهدك.

فكان رده: كله يهون.

وأخذ سامى يعدد مزايا الحياة بعيداً عن القاهرة، هناك لا زحام ولا ضوضاء، الجو أنقى، الشقق أوسع وأرخص، وهذا مهم جداً.

سألته: لماذا لم تتزوج؟

: خطبت أكثر من مرة لكن لم يكتمل المشوار، قدر!

وكنا قد وصلنا للمحل، بمجرد أن لمح سامى الكرافتات المعروضة تقدمت خطواته نحوها، حام بصره بالكرافتات التى بالصف العلوى، تلك التى أحدث موضة وأغلاها، وكان فى وسطها كرافتة رمادية جميلة، قلت لنفسى: إن ذوق سامى رفيع، ثم رأيته وهو يتحول ببصره إلى اليمين، كان هناك كرافتات بلون فاقع تناسب الشباب، من بينها كانت كرافتة حمراء تليق بحفل زواج، عندئذ كان القول لنفسى: اختار سامى ما يناسب عمره، ثم حاد بصر سامى إلى هناك، أقصى اليسار حيث توجد كرافتات رخيصة، أغلبها أصفر أو أخضر، ثم أخذت عيناه تحومان فى كل جوانب الفترينة. فقلت لنفسى: ماذا يريد سامى؟

وسمعته يقول: هل هذه الكرافتات هى كل ما عنده؟

قلت: ندخل المحل، يوجد غيرها بالداخل.

: لا يعجبنى المحل.

وابتعد بسرعة عن المكان، عبر الطريق، وأنا لا أكاد ألحقه. وأصبحت السماء بسحب بنفسجية قاتمة، ورياح شديدة هبت مستثيرة للأتربة المضايقة. بالرغم من هذا التيه للأبصار بدت لنا محلات، منها ما يبيع الكرافتات، لم يلتفت سامى لها، وتوقف، كان ذلك عند بائع متجول يعرض كرافتات على

صندوق خشبى، أخذ سامى يتفحصها بتمهل.

قال: ما رأيك فى هذه الكرافتة؟

كانت الكرافتة التى اختارها رصاصية اللون تناسب القماش الذى معه، لكن لم أقل شيئاً، فهؤلاء الباعة المتجولون يبيعون بسعر أرخص من المحلات، لكن معروضاتهم فيها غلطات تصنيع تكاد لا تبين، غلطات تظهر عند الاستعمال ومرور الزمن. سأل سامى البائع المتجول عن السعر، كان رخيصاً، بالرغم من ذلك أخذ سامى يفاصل فى السعر، واشترى فعلاً بعد مماطلة طويلة مع البائع.

وكان سؤال يتردد فى ذهنى: ما الفرق بينك يا سامى وبين عادل؟!

واقترح أن نتجه سائرين إلى محطة مصر فميعاد قطاره لم يحن بعد، وتكون الفرصة كى نتفرج على الكثير من المعروضات، كان ذلك بينما قرص الشمس لا يزال مختبئاً وراء السحب، ولا يزال أيضاً الجو البارد والرياح، وافقته على مضض. ثم كان توقفه، أشار إلى محل لبيع عصير القصب، اقترح أن نشرب منه.

وقال: ليس معى عملة.

هززتُ رأسى ممتعضاً، ودخلنا المحل، فى الجانب الأيسر منه كانت تقف فتاة ترتدى بنطلون جينز أزرق و(بلوزة) بنفس اللون، نظرت إليه مرات وهى ترتشف العصير من كوبها،

قد يكون محيا وأناقة سامى قد أعجباها. حدت ببصرى جانباً لأرى مرآة معلقة على حائط، ظهر فيها جانب من رأس سامى، وأيضاً رقبته التى بدت لى ممطوطة بشكل غريب، بل ويزداد مطها تدريجياً، وكانت كرافتته التى حول الرقبة مشدودة للأمام فى قسوة، كأن شىء يجذبها، لا يكف، هل هناك ما يضيق بالمظهر الأنيق الخادع لسامى، ويعرف دخيلة ما فى نفسه، ويعاقبه بأن يشده من الكرافتة؟! أخذت أفرك جفونى.....، ثم أخذت أنظر فيما حولى، رجعت الأمور إلى حالها، سامى ورقبته بمنظرها العادى، والكرافتة تنسدل على صدره، والفتاة تنظر إليه.

في الطريق عاد سامى لما تطرق له من قبل، استهجانه من تصرفات عادل، أهمية الأناقة والمظهر، مزايا السكن بعيداً عن القاهرة، حكايته مع أخته وقماش البذلة. أنا أحسست بضيق شديد.

وظهرت لنا محطة مصر بمبناها الكبير الذى يمتد على مساحة شاسعة، تغلفه هالة من الغبار والأدخنة والأتربة، يلفظ من أبوابه العديدة جموع من ناس بحقائب وأكياس وأحمال ووجوه عليها عبوس وتعب. وكنتُ وسامى قد وصلنا إلى شجرة من ذلك النوع الذى له ورود حمراء، وكان منها ما هو متساقط على الأرض، خطى سامى عليها بلا مبالاة.

وقال: ليس معى فلوس، أريد منك ثمن تذكرة السفر.

رفضت طلبه بصوت عالٍ، وكان قد اشتعل الضيق بنفسى.

قال سامى: ما عليك.

ورأيته يسرع نحو محطة مصر، وركلت أنا حجراً ، فتدحرج على الطريق فى نفس الاتجاه الذى اندفع سامى إليه، ببذلته والكرافتة ومظهره الأنيق، ثم انحنيت، أخذت ألم الورود الحمراء المتساقطة، وضعتها على غصن للشجرة، أخذت أنظر إليها، كانت جميلة، وهى فى مكانها هناك مثل الوردة الجبلية التى وضعها المحب على باب حبيبته في رواية (توماس مان).

وكانت السحب قد زالت من صفحة السماء، ظهر قرص الشمس جلياً، وأخذت أسير بخطوات متمهلة، أتأمل الوجوه، وأيضاً الطرق والمنازل والأشجار.

الحواجز

ذلك القط رأيته مرات، دائماً وحيد، له وجه عريض الفكين وشوارب طويلة نافرة. كان نجم الشمس متسلط على الأرجاء بضوئه الساطع، والقط على حافة سور، ابتعد فى تثاقل...، قبع فى ركن ـ أحسست بأسى لذلك القط، من انزوائه، وأيضاً لأنه ليس له وليفة.

فى المساء أخذت أتصفح كتاب مادة الكيمياء.....، لم أر بالأوراق سوى غمامة كثيفة، وصوت أمى يسرى فى أذنى: اعتمد على نفسك، ثم تقول: إذا فشلت فى مرات كثيرة واستعصى عليك الأمر اطلب المساعدة من الغير، دعكت جفونى، ورأيت جدران غرفتى، على الجدار بمواجهتى ساعة حائط مستديرة، وبجانبها صورة حصان بعينين جاحظتين، وعرفه الهائش، وهو يجرى محاولاً اجتياز وحل قاتم، وفى ركن بعيد كان سريرى.

قبضت على سماعة التليفون، أخذت أحرك مؤشر الأرقام، قلت بصوت مرتعش: أبو خليل، سمعت صوته هادئاً يسألنى عن الحال، قلت له بأنى لا أستطيع التركيز، والامتحان

كما يعلم بعد أسبوع، وسيبدأ بالكيمياء التى أكرهها، فعرض كما تمنيت أن أذاكر معه، واتفقنا أن نبدأ بالفصل الرابع لأهميته، ثم سألته عن موعدنا، فكان رده قصيراً حاسماً: غداً.

أمام شقة إبراهيم وقفت، ضغطت على زر الجرس مرات...، انفرج الباب أخيراً.

قال: تمام.. جئت فى ميعادك.

وأشار بأن أدخل. وجدت أمامى جدارين يكونان ممراً ضيقاً، وهناك شباك مفتوح على يسارى، عندما حازيته هب منه تيار هواء بارد جعل ثيابى تنتفخ، ووجدت نفسى أسرع نحو الشباك، قبل أن أقفله اتجهت عيونى لأسفل نحو الشارع، كان بعيداً ومنظره مغايراً. التفتُ نحو إبراهيم، كان يضحك، ثم قال: الحال هنا ليس كما فى دوركم الأول، هززت رأسى مؤيداً، ثم تبعته إلى غرفته. بدأنا المذاكرة، واستطعت التركيز، ووجدته يضارعنى فى حفظ المعادلات، وتصايحنا فرحاً عندما سمعنا الدقات العشرة لساعة الجدار القريبة منا وقد انتهينا من الفصل الرابع. صفحة واحدة قرأناها من الفصل التالى، وتأوه إبراهيم، ثم قال بأن غرفة شيماء لصق غرفته، ثم اتجه للشرفة، أطل منها محدقاً فى الغرفة المجاورة، وصوته يعلو فى تساؤل عما إذا كانت ساهرة لتذاكر مثلنا. عندما عاد إلى داخل الغرفة أخذ يتكلم كثيراً، ضاع الوقت....، متضايقاً طلبتُ من إبراهيم أن أخرج، فسألنى هل سأجىء مرة أخرى، فتهربت من أن أجيب.

بـاب شـقة شـيماء المجـاور لشـقة إبراهيـم والمواجـه للسـلم كان ضـوء يتلاعـب علـى زجـاج شُـراعته، ضـوء لا يمكـن الجـزم بـأن مصـدره مـن داخـل الشـقة، وسمعـتُ صوتـاً مـن خلفـى، كان إبراهيـم يحـدق نحـوى قبـل أن يقفـل بـاب شـقته. فـى غرفتـى أكملـت المذاكـرة، وانتبهـت إلى إشـراق الصبـاح، فأخـذت أصفـق، ثـم امتـدت يـدى إلى الـرف، أمسـكت التمثـال الـذى يحبـه أبـى، المـرأة العاريـة، وأخـذت أتلمـس الجسـم المعدنـى.

جاءنـى إبراهيـم، عـرض أن نذاكـر ثانيـةً فـى شـقته، لمـا عنـده؟، هممـت أن أرفـض، لكنـه جذبنـى مـن يـدى، أثنـاء صعـود السـلم التفـت إبراهيـم نحـوى قائـلاً: مـا هـى أخبـار الملوخيـة؟ لم أفهـم المقصـود مـن كلامـه. تلـك المـرة فـى غرفتـه كان يتلعثـم فـى ترديـده للمعـادلات، وكل حـين يتركنـى ليطـل مـن الشـرفة، لا أعـرف كيـف أصبـح الوقـت ينقضـى ببـطء....

قال إبراهيم: نأخذ لفة.

وأوضح إرادته بأن نتجول فى شوارع الحى.

عنـد السـلم انفتـح بـاب شـقة شـيماء، وخـرج أخوهـا، صـاح بصـوت غريـب، لم نعـرف إذا كان يـزوم أو يحيينـا، ومـن خلفـه كانـت شـيماء.

قالت له: أنت الأصغر، فاسمع الكلام، انزل، وأنا سأنزل معك.

بالفعـل نـزل درجتـين، ثـم توقـف، وأخـذت عينـاه تتفحصنـا. إبراهيم اقترب منها، سـألها عن المذاكرة، فأخت تشـتكى من صعوبة

بعض المواد، وعندما انتبهت لوجودى أخذت خطوةً نحوى.

قالت: أهلاً بالابن الوحيد لوالديه.

خطر لى بأنها ستهزأ بى، الكثير سبقوها، سألونى ساخرين لماذا اكتفى والداى بى، وهل ليس لهما قدرة أكثر من ذلك.

لكنها قالت: طبعاً كل اهتمامهما بك، وهذا سبب تفوقك.

ثم قالت: لن تتفوق علينا ككل سنة.

كانت تقول كلماتها وهى تبتسم، وبريق بننى عينيها السوداويين.

وسمعتها تقول: سأتفوق تلك المرة.

قلتُ: سنرى.

فرددت هى كلمتى : سنرى.

واتجهت هى للسلم متحدية أخيها فى أن يسبقها في النزول، فى حركتها لامستنى، أحسست حرارة. واقترب منى إبراهيم، حدق، رفع سبابته بمستوى وجهى، كان سيحذرنى من شىء ما، لكنه لم يقل كلمة.

فى شوارع الحى انقضى الوقت فى تجولنا، والعتمة غشت الأمكنة باستثناء أنوار هنا وهناك. صادفنا غلام، كان يمسك بسلسلة معدنية يلتف طرف لها حول رقبة كلب ضخم بشعر أبيض هائش ـ وتصايح إبراهيم فى سخرية بالغلام الذى حرر

الكلب من السلسلة، وأخذ يحثه أن يهاجمنا، ففعل وهو ينبح بشدة، فأخذت أنا خطوات للخلف، لم يتحرك إبراهيم من مكانه، عندما وصل الكلب الهائج لنا ضربه إبراهيم بشدة فى أنفه، فتوقف الكلب عن هياجه، أخذ ينظر بعينين زائغتين إلى إبراهيم، ثم عاد منهزماً إلى الغلام.

قال إبراهيم بصوت عال: اسمع النصيحة وتخلَّ عن ذلك الكلب الجبان.

ثم التفت لى وقال: ما أخبار الملوخية؟

وأنا شعرت بالخزى من خوفى، ومن ضآلتى بالمقارنة بإبراهيم الفارع القوى البنية.

عند باب شقتى كان الضوء شاحباً، بالرغم من ذلك رأيت ذلك القط بالقرب، كان يحوم حول شىء ما، أظن أنها قطة صفراء.

رأيت أبى يمسك بيد أمى، يجذبها، وقفت محدقاً، عندما انتبه أبى لوجودى أقفل أمامى باب غرفتهما، وأحسست الحرارة تسرى بجسدى. فى غرفتى كانت النافذة مغلقة الزجاج، وقفت أمامها، لم أر سوى جانب من المدرسة التى بمواجهتى وكشك السجائر الذى بالقرب، ولم أر أحداً متواجداً هناك، ولم أسمع صوتاً ولو ضعيفاً، كانت نافذتى حاجزاً بينى وبين ما يقع بالحياة خلفها، ورفعت يدى بمستوى النافذة، أخذت أنقر بأصابعى على زجاجها، سمعت خطوات أمى تقترب من غرفتى..، وقفت ورائى، وأنا لا أزال أنقر

على النافذة، سألتنى عما أفعل، فابتعدتُ عن النافذة، وأنا منكس الرأس، فعلا صوتها قائلة: لماذا لا ترد؟، ودخل أبى، لم يعترض عليها بحدة كما حدث كثيراً، لم يفعل سوى أن طبطب على كتفى. وعندما رفعت رأسى رأيت أبى وأمى ينصرفان، ويده تمسك بيدها.

بعد امتحان الكيمياء، وبينما أنا فى الطريق أحسست برضاء عن النفس وهدوء بالرغم من ازدحام الناس والسيارات المسرعة. عند مدخل العمارة رأيت شيماء، عاجلتنى بسؤالها عن إجاباتى، أخبرتنى بأنها تريد الاطمئنان على تفوقى، قلت: الحمد لله، وأظهرت هى لى ورقة امتحان مدرستها، وأخذت تسرد إجاباتها...، قلت: تمام، فكركرت ضحكاتها، ثم سألتنى عن رأيى فيها وهل هى معقولة، عندئذ سمعنا صوت أقدام، كان إبراهيم، بدا عليه الغيظ، لم يحيينا، واتجه إلى السلم، وقالت شيماء لى بأنه يجب الاهتمام بحميع المواد بنفس القدر، ثم أسرعت نحو السلم، صعدت أمامى، كان ذيل فستانها يتماوج على ساقيها بجوربها الفاتح.

رأيت ذلك القط العريض الفكين، طالت شواربه، الآن أصبحت أراه دوماً مع تلك القطة.

نادانى الأخ الصغر لشيماء كى نلعب، ومن بعده إبراهيم الذى قال بأننى ألعب دائماً مع الأصغر منى سناً، وتحدانى أن ألعب ضده، منعتنى أمى من النزول قائلة: عليك بالراحة بعد الانتهاء من الامتحانات، ثم أعطتنى دوبار، وهي تشير إلى كتبى

وكراريسى المتناثرة، فأخذت أجمعها وأربطها، بعد أن انتهيت أخذت أرسم فى صفحة كبيرة بيضاء،على اليسار شجرة، وفى المنتصف رجلاً طويلاً قوى البنية، وملامح وجهه حزينة، وهو ينظر إلى قرص الشمس الذى يوجد فى أعلى اليمين، ومعظم الصفحة بيضاء، ووجدت أبى يقترب، ويتأمل صفحتى.

قال: هذا الرجل يترقب شيئاً ما.

ثم قال: ترسم جيداً، لكنك لا تستطيع إكمال لوحة بكل تفاصيلها.

في المساء جاءنا زائر، همست أمى بان ذلك الرجل رزقه ما شاء الله، وعندما سألتها عن عمله، ردت بأنه مسئول عن الرسم وما شابه فى مجلة حكومية، وأمرتنى أن أشترى البن فالرجل صاحب مزاج. رمقت الرجل عندما جاء من خلال الباب الموارب، بالرغم من حرارة الجو كان يرتدى بذلة بلون أزرق غامق بخطوط طولية سوداء، وقميص ضيق بياقة متسخة مفتوحة ليظهر لحم رقبته السمينة، قلت لأمى بأن مظهرة كرجال الأعمال، ضحكت، ثم قالت بأن هذا ليس وقت الهزار، وقالت بصوت عالٍ النبرات: هيا بنا لنرحب بالرجل.

فى الصالون كان الرجل يقول لأبى: لماذا توقفت عن رسم اللوحات؟!

فرد أبى بصوت حزين: والله كان مشروعى ولكن...

: فرصتك جاءت الآن، سأشغلك كمستشار فنى فى عملى الحكومى.

: هل هناك فرصة أن أعمل معك!

ـ: نعم... النهار معى وبعد ذلك للوحات.

: أجرى لا بأس به.

: تعمل أنت بالقطاع الخاص الذى يستنزف وقتك، لنعرف ما ستقول زوجتك، ماذا ترين؟

: أنت تريده أن يعمل فى الحكومة، وينقص دخله والحاجات تزيد أسعارها!

: لكنه سيكون بعد الظهر فى البيت، بعد شهور قليلة قد تمكن الظروف أن أزيد من أجره عما يأخذه من شركة القطاع الخاص التى يعمل بها، بالإضافة إلى أن سيكون له الوقت ليرسم اللوحات ويكسب منها، الزيادة فى دخله مؤكدة.. مؤكدة.

قلت أمى: والله فرصة إذا كان دخله سيزيد وأيضاً سيقضى نصف اليوم هنا.

: زوجتك توافقنى... ما رأيك يا أستاذ؟

فقال أبى: لا.. أنا مستريح فى عملى.

بعد ذهاب الرجل تكلمت أمى مع أبى كثيراً، كان صوتها يعلو عندما تقول بأنه لا يحب أن يقضى نصف اليوم معنا،

قال أبى: كان كلام الرجل بما معناه أن زيادة المرتب احتمال، قد يتحقق وقد لا يتحقق، ثم أخذ يردد كل حين: أنا مستريح هكذا. فى ذلك اليوم لم يخرج أبى كعادته للتنزه أو الجلوس بالمقهى، وأقفل أمامى باب حجرتهما.

وأنا ممسك بالشهادة عند عودتى من المدرسة كنت أسرع فى خطوى...، بدا لى الطريق طويلاً وممتداً، ورأيت إبراهيم، تقدمت نحوه، أطلعته على درجاتى، عندما سألته عن درجاته تلعثم، حاول إخفاء الشهادة التى يمسكها، عندما مددت يدى نحوها، تردد فى إعطائى إياها، ثم تركها لى، وجدت درجاته كلها منخفضة، وعلى الأخص درجات مادة الكيمياء.

قلت: عجيبة!

حاول ألا يظهر اهتماماً وهو يقول: كالعادة تفوقت علينا.

قلت: طبعاً.

قال: هذه المرة الفرق بينك وبين شيماء ضئيل.

قال كلماته السابقة بصوت عال، كان يفخر بها.

قلت: لكن لا أزال المتفوق عليكم جميعاً.

ودفعنى إبراهيم فى صدرى، وهو يتهمنى بالكثير، قال بأننى هكذا لا أستطيع مجاراتهم فى اللعب لذلك أحرص على التفوق عليهم فى الدراسة.....، ثم قال بأنى لست برجل لأنى لا أرافق الفتيات، وكرر اتهامه الأخير مرات، لم أعرف

ما الداعى لكل هذا، ثم دفعنى ثانيةً، خفت أن يستمر فى اتهاماته، وتوقعت الشجار بينى وبينه.

أخيراً قال: اليوم نلعب، أنت فى فريق وأنا فى فريق.

كان يتحدانى، نفس التحدى الذى رغب فيه من قبل مرات، وكنت أتهرب منه.

فى هذه المرة قلت: إذا كان الموضوع هو من منا الأحسن فى لعب الكرة فاليوم سنرى.

وأنا أشعر بضيق منه، من اتهاماته التى كالها لى، واتهامه بأنى لست برجل جرحنى بشدة.

أنا الذى اخترت ألا يشمل فريقى سوى أربعة لاعبين، أما الفريق الخصم فكان يتكون من إبراهيم والأخ الأصغر لشيماء وثلاثة لاعبين آخرين، كنا أربعة فى مواجهة خمسة. استطعت تسجيل هدف، قال إبراهيم: حظ، وعندما سجلت الثانى لم يتكلم إبراهيم، والثالث، فظهر الغيظ على وجه إبراهيم، وانأ أصبحت لا أبالى بتسجيل أهداف أخرى، كلما استطعت الاستحواذ على الكرة كنت أركلها بقوة خارج حدود اللعب، فيجرى أحد أفراد الفريق الخصم مسافة طويلة وراءها، ويعود لاهثا بها لنعاود اللعب. وشيماء كانت تتابع من شرفتها، وعيرت إبراهيم وأخيها بهزيمتهما، وابتسمت، أظن ابتسامتها كانت لى. فى مرة ركلتُ الكرة بقوة، الاتجاه كان لأعلى، تجاوزت الكرة فى ارتفاعها الدور الأول والثانى لعمارتنا...،

ووصلت إلى متناول يدى شيماء التى تلقفتها، وأسرعت إلى داخل الشقة، وهى تضحك. هكذا أصبحنا بلا كرة، ووقف رفاقى فى اللعب مذهولين. أنا قلت: سآتى بالكرة، تركتهم. وأنا أصعد السلم، كنت أحس نشوة، ورأيت جميع أبواب الشقق مقفلة وأيضاً الشراعات بحواجزها الزجاجية التى لا تبين ما وراءها، فى نشوتى أخذت أنقر بخفة الأبواب والشراعات. عند باب شقة شيماء بمجرد أن نقرته انفتح، وظهرت شيماء وهى ممسكة بالكرة، وقفت أمامى لحظة، ثم جرت نحو غرفة، تبتعها، فى الغرفة رمت شيماء الكرة أسفل سرير، ووقفت كحاجز بينى وبين الوصول إلى الكرة، وكانت ابتسامتها ما تزال على شفتيها، واقتربت أنا....

وأنا أنزل الدرجات، والكرة بين يدى، وأنا أحس بحرارة شديدة، كان أخو شيماء يصعد، سألنى: لماذا تأخرت؟ لم أرد، تجاوزته، وتابعت نزولى فى قفزات، وسمعت صوته من خلفى وهو يقول: لماذا تسرع هكذا؟!

في ذلك اليوم استكملنا اللعب، وانتصر أفراد فريق الخصم، أحرزوا ثمانية أهداف، بينما توقف رصيد فريقى عند ثلاثة! وكانت الحرارة الشديدة لا تزال تسرى فى جسدى، وأنا أرى شيماء فى شرفتها، تبتسم.

هى والوردة
التى لها كل ألوان قوس قزح

فى صباح، عند نافذة حجرتى وقفت، أطللت. نافذة حبيبتى القريبة مفتوحة، على قاعدتها أصص زرع حجبت عنى رؤية بعض ما فى حجرة حبيبتى، لكنى استطعت رؤيتها، هناك تجلس خلف منضدة، منكفئة، تكتب، لابد أنها تكتب رسالة حب طويلة، هل تكون لى؟ على سطح منضدتها الخشبى أقلام كثيرة وأوراق، وأيضاً وردة واحدة بدت لى أن لها كل ألوان قوس قزح، والوقت يمضى....

حبيبتى صغيرة الحجم ونحيفة إلى حد كبير، دقيقة الملامح سوى أنفها الطويل الذى يمتد على صفحة وجهها باستقامة شديدة، قال لى بعض من أعرفهم أنها ليست جميلة، سألونى لماذا أحبها كل هذا الحب! فى أغلب الأحوال لم أرد، ولم يمنع كلامهم استمرارى فى حبها، أقول عنها فى دخيلتى أنها(قمحاية)، أشبهها بواحدة من الحبيبات التى تحتويها السنابل، فيكون الخبز، والحياة، والوطن، حبيبتى وطنى.

أحسست بأمي تدخل حجرتي، أحضرت كوب عصير ليمون، فيه قطع ثلج تنفح ذرات بخار على زجاج الكوب.

قالت بصوت زاعق: السماء مظلمة.. وما تزال أنت عند النافذة!

قلت أنا: هل حل الليل؟

ونظرت نحو السماء، كانت فعلاً مظلمة! ثم نظرت لنافذة حبيبتي، كانت مغلقة!

قلت مندهشاً: ولكن...

قالت أمي بلهجة باردة أغاظتني: كوب الليمون بارد، لعله...

ثم خرجت من الحجرة، أين كان أبي؟ لم ينقذني كعادته من مضايقات وملاحظات أمي! جلست خلف مكتبي، عليه مصحف فيروزى الغلاف، تلمسته، ثم فتحته، أخذت أتلو بصوت هامس في محاولة كي تهدأ نفسي.....، أنا في ورطة، هل أنا كما قال لى رئيسي في العمل بأني لا أفعل شيئاً؟ قرعت الساعة الكبيرة المعلقة على حائط في الصالة القريبة من حجرتي مرات، قطع الثلج فى الكوب تذوب، وأنا ما زلت متضايقاً، حاولت أن أنسى هذه الذكرى حينما قالت حبيبتي: لا فائدة، وقالت: أنت مثل أخي، زفافي قريب، لا تفسد سعادتي. كانت تقف عند السلم أمام باب شقتها عندما قالت ما قالته، ثم تركتني، أوصدت الباب من خلفها. وكانت فتاة وأخرى لا أعرفهما في مثل عمرى يتندرن على، وهما واقفتان أمام باب شقة أخرى. عندما عدت لشقتى

وحجرتى الضيقة حاولت أن أكتب لحبيبتى رسالة، كتبت كلمة واحدة: أحبك، ثم كررتها كثيراً. ذكرى وددت أن أنساها.

فى العمل قال رئيسى: أنت صغير، لم تتعلم بعد، لم ينقض سوى شهور من بداية عملك، لكنك لم تفعل شيئاً، تعلم!

أنا أعمل مهندساً فى هيئة حكومية أنشأها من سنوات عديدة الانقلاب العسكرى المشهور بثورة ٢٣ يوليو لسنة ١٩٥٢، فيها أجلس على مكتب، سطحه بقشرة أزيلت من أماكن هنا وهناك، لا أفعل شيئاً، تأتينى بيانات بإنجازات أعرف بأن أكثرها وهمى من شركات تابعة لهيئتنا، لا أفعل سوى أن أعيد كتابتها فى نهاية كل شهر بخط منمق وإدراجها فى جداول أخط حدودها بدقة مهندس، عمل لا يستغرق سوى ساعة على الأكثر، وبعد ذلك يذيل ما أكتبه توقيعات كثيرة لمديرين يعلوها جميعاً بخط كبير توقيع رئيس الهيئة. فى العمل كثيراً ما يجدنى رئيسى نائماً، فيزجرنى بالرغم أن ليس هناك من عمل أقوم به سوى ما أنجزه فى ساعة بنهاية كل شهر، يبدو أنه يتضايق من منظرى نائماً كإعلان عن الفراغ الذى نعيشه، فيقول كلمات كثيرة غاضبة، وأنا لا أرد، أو أعده بأنى سأتحسن وسأزيد من جهدى فى العمل، كيف؟ وليس هناك من عمل!

كنت أشعر أن بتصرفاتى هكذا أخون نفسى وأخون حبيبتى التى تفخر بى لحصولى على درجات عالية فى الثانوية العامة وتخرجى من كلية الهندسة، فلا عمل أعمله، ولا أطبق ما تعلمته

من علوم بالجامعة فى عملى بالهيئة، ومعظم وقتى فى فراغ.

في نهاية يوم عمل وقفت فى الطابور الطويل لأوقع فى دفتر الانصراف، استغرق ذلك وقتاً، تصببت عرقاً، اهتزت قدماى، ارتكنت على حائط قريب، عندما وصلت لأول الطابور أمسكت القلم بيد تبرز فيها عروق، كتبت فى دفتر الانصراف شيئاً ما لا أعلمه، ثم انصرفت.

في الشارع وقفت، لا يصح على الإطلاق أن أحصل على مرتب من عملى فى مقابل الحضور والانصراف وفقط. نظرت للرصيف المواجه، شعرت بأنى يجب أن أعبر للجهة الأخرى، وفعلاً تقدمت. السيارات كانت مندفعة، أنا ترددت، فكانت أبواق السيارات التى تحذر، حاولت أن أتخلص من تخشب شديد أصابنى، أيدى كثيرة دفعتنى للأمام، جسدى كاد أن يسقط، لكن استطعت الوصول للرصيف المقابل، تنفست الصعداء. وأنا أسير كانت جموع فى مواجهة تقدمى، معظم المارين على نفس الرصيف كانوا يسيرون فى الاتجاه المضاد لى. لا أعرف لماذا أحسست سعادة لأنى مختلف ومعارض! لكن الشارع الذى سرت فيه أدى إلى طرق وشوارع وحارات، وكانت الحيرة، وبالرغم من كل شىء وصلت فى نفس الميعاد للمقهى الذى أذهب إليه يومياً.

بالرغم مما يحدث من قلاقل واضطرابات فى البلاد يقال عنها بأنها ثورة ٢٥ يناير تلتها قلاقل واضطرابات أخرى تلتها يقال عنها ثورة ٣٠ يونيو إلا أن من العادة

أنا وأصدقاء أن نجتمع فى هذا المقهى، كلنا من المؤهلات العليا، نجلس فى ركن لا أعرف لماذا اخترناه، وواظبنا على الجلوس فيه، وبالرغم من حذرنا وابتعادنا عن باقى مرتادى المقهى، ولا أحد يعرف لماذا! إلا أن كثيراً ما حدث أن دخلنا فى مناقشات عما يحدث فى وطننا فيما بيننا وامتدت إلى بيننا وبين مرتادى المقهى، مناقشات لا نهاية لها يشملها الضجيج والاختلاف وعدم الاتفاق، وانتهت دائما باتهامات متبادلة، بأن هذا إخوانى ومن طبعه المجادلة ثم المجادلة، وهذا ليبرالى أو علمانى يعيش فى معزل عن الغير ولا يعرف ماذا يريد الشعب ويتمناه، وهذا يؤيد الجيش الذى يقبض بشدة على مقاليد الأمور....، اتهامات كثيرة لبعضنا بعض، وكانت تنتهى بالصمت الذى يغشى الجميع أو أن نسمع سخرية ومداعبات مثل: لا أحد يتكلم معهم فإنهم رجال المستقبل، فيشمل جماعتنا سكون إلى أن يرد واحد منا بسخرية مضادة: نحن رجال الماضى والحاضر والمستقبل، ألا تفهمون؟ فتنطلق ضحكات وصفير من شفاه، ثم نعود للحذر من جديد.

بين أصدقائى جلست، ألعب الطاولة معهم، أرمى النرد، ويرمون، أحرك القواشيط فى سرعة، هم يتمهلون، دائماً أنا الخاسر، يضحكون ساخرين وهم يقولون: الولهان... الفائز دوماً، وخيبتى تبدو لى فى مرآة معلقة على حائط بالمواجهة. الكلمات التى تصدر من أصدقائى فى اللعب لا تكف، كلهم يتكلمون فى نفس الوقت، كل منهم مصمم بأنه على صواب

وغيره مخطئ. وأنا أحس بفراغ، ويعاودنى الشعور أنى خائن.

انصرفت، تعمدت أن أبتعد عن الجميع، اتجهت للبحر، عند الشاطئ كان الموج فى ثورة، ألتفت نحو المنازل القريبة، لا يصلنى من المنازل صوت، النوافذ جميعها مقفلة بلا أضواء تتسرب منها، والأبواب موصدة. أنا وحدى، وأحس فى نفسى ثورة كالتى تشمل البحر، وأحس أيضاً أن هناك ما يكبلنى، فلا أستطيع أن أفعل شيئاً. وتنسحب خطواتى للمنزل، وأنا أحس بروحى تنسحب منى، والعديد من الأسئلة تتزاحم فى ذهنى: هل إحساسى بأنى أخون نفسى وأنى أخون حبيبتى يرجع فى الحقيقة أن كل حين تكون لى علاقات مشبوهة مع نساء لأشبع متطلبات جسدى الفائر ولا أستطيع أن أكف؟ هل تعلم حبيبتى بذلك؟ من أخبرها؟.....

عند المنزل، نظرت لشرفتها، وصعدت لشقتى. لابد أن أفعل شيئاً، أنا فى ورطة.

تعمدت أن أنتظر حبيبتى فى الليل، عندما سمعت صوت أقدامها الذى أعرفه فتحت باب الشقة، كان الظلام دامساً لكنى أحسست أنها بالقرب منى، وتلفحنى أنفاسها، لم أقل سوى كلمة واحدة صارخة: تزوجيه، فكانت جلبة، أبواب فتحت، فظهرت أجساد لنساء ورجال، ثم انسحبوا، لتقفل الأبواب بشدة. وأحسست أنا بأناملها الرقيقة تضع فى يدى رسالة من أوراق كثيرة.

وسمعتها تقول: كنت أكابر، في الحقيقة لم أنسك، لا أستطيع، من زمان أود أن أقول لك...

لا أعرف لماذا لم أصدق ما سمعت، أو إنني لم أستوعب معناها، وكان أن مزقت أوراق رسالتها، وكدت أن أصفعها، لكني لم أفعل سوى أن أقفلت باب شقتي من خلفي بعنف، وكانت ضحكة فاقعة، أمي كانت تقف عند باب حجرتي، منفرجة الشفاه، عيونها تلمع، تخرج لسانها، تكيدني. وجاء أبي ليقف بالقرب مني.

وقال بصوت خفيض: لم تفعل شيئاً.. تعلم!

ووجدت نفسي أفتح باب الشقة ثانيةً، صفعتني رؤية الظلمة. لكن أحسست بحبيبتي، كانت تتخبط على درجات السلم.

هل أنا لا أفعل شيئاً؟!

كالعادة أمضيت وقتاً ألعب مع أصدقاء في المقهى، كالعادة الجميع مختلف مع الجميع، كل منا متمسك بعنف بما توصل إليه ويهواه من رأى، إحساسي بالخيانة مستمر. أتشاغل بلعب الطاولة، أنهزم، لماذا؟ تفكيري شل. النرد يُرمى، القواشيط تتحرك، المشروبات تجئ، رائحة دخان السجائر تزكمني، أشخاص آخرون يأتون، يجلسون، يلعبون أيضاً، يتضاحكون، أرى نقوداً تتبادلها الأيدى، تتلمس أصابعي جيوبي الخالية، المرتب نزف، كيف كنت سأتصرف لو تزوجت؟ صغير أنا. ينصرف الجميع، يتركوني، الأصوات ما تزال تصافح أذني:

الولهان دوماً المنتصر، أضحك، أمجنون أنا؟ أعرف بأن فى النهاية لن أجد حلاً إلا الانصراف، بالرغم من ذلك أجد نفسى مستمراً فى القعود.....

أتلفت حولى...، لا أرى سوى المقاعد الخالية وطاولات اللعب الخشبية متروكة بإهمال مفتوحة بداخلها القواشيط والنرد، وهنا وهناك مخلفات طعام وأعقاب سجائر كثيرة ووساخات، المكان كان يشمله هواء بلون أزرق أو أرجوانى، وأخذت أحدق...، تيقنت أنه لون ما بين هذا وهذا، هذا اللون يكون فاتحاً ثم يغمق كلما نظرت لأعلى، وينتهى بلون أسود قاتم بالسقف، كأنه قارورة بقاعدة عريضة وعنق طويل ضيق لهما هذا اللون الذى ما بين الزرقة والأرجوانى، أحسست بدوار ورغبة بأن أفرغ ما فى جوفى، بالرغم من ذلك طالت جلستى...، أحدق فى هذه القارورة، هززت رأسى وأنا أقول عنها فى نفسى أنها تمثل الاحتقان الشديد المأزوم الذى نعيشه، فانفعلاتنا عديدة شديدة، وهذا يمثله قاعدة القارورة، لا نستيطع تفريغه لأن المنفذ الوحيد له ضيق، وهذا ما يمثله عنق القارورة.

أعرف أنى سأتجه للبحر، لابد، لكن لماذا هذا التلكؤ الذى يغشانى! لم يبق بالمقهى سواى وأحد عمال المقهى الذى لم ينظف المكان واتجه إلى حجرة ضيقة فى أقصى المكان، سمعت صوت قرقعات وخبط أشياء متواصل كأنه صوت حلل للطعام يتم غسلها أو صناديق يتم ترتيبها ونقلها من ركن إلى

ركن. من بعيد ظهر رجل ليس بصغير السن وليس بكهل، وقف بجانب حائط لفترة طويلة، ظننت أنه سيقضى حاجته ويخشى مشاهدة أحد له فى فعلته، لكنه لم يفعل، دار حول المقهى، دخل شارعاً، اختفى عن بصرى، ثم عاد، ليدخل شارعاً آخر، وعاد، ليدخل المقهى، لم يهتم بى، أسرع للصنبور الذى(بالنصبة)، ملأ كوباً، تجرعه بسرعة شديدة، خفت أنا أن تصيبه غصة أو يتقيأ ما تجرعه، وجلس الرجل فى مكان بالقرب منى وهو ينهج، ثم أخذ يحادثنى كأنه يعرفنى من مدة طويلة، اشتكى من حال البلد، قال إنه اشتغل فى إحدى الهيئات الحكومية بعقد مؤقت لسنوات طويلة، وأنه أخيراً تم تعيينه فى إحدى تلك الهبات التى قامت بها أجهزة الحكم الآن كى تهدئ النفوس والأمور، وأنه لم يزد مرتبه إلا قليلاً، وأن ارتفاع الأسعار بلع هذه الزيادة حتى أنه يضيق الحال به فى نهاية الشهر، وأن فى جيبه جنيهاً واحداً فقط، لكنه يتوقع أن يقبض فى اليوم التالى، وأنه كان يبحث عن محل يشترى منه سندويتش فول ليسد جوعه.

وارتفع صوته وهو يقول: هذا هو ما حصلنا عليه!

وأنا منحنى فى جلستى، أتهرب من النظر إليه، وروحى يعتريها غضب عارم مما يحدث. وقام الرجل بدون أى مقدمات، خرج من المقهى، ذهب نحو حائط، قضى حاجته، ووجدت نفسى أقوم، وفى ابتعادى التفت لأحدق فى المقهى الذى تركته وتلك القارورة التى تشمل هواء المكان، بصقت

مرات، ثم أسرعت، وصوتي يزعق بصوت خشن: خونة، كأنه صوت الممثل أحمد مظهر في أحد أفلامه عندما وصم اصدقاءه الذين تخلوا عنه في محنته، خونة... خونة... خونة.

كالعادة ذهبت للبحر. هناك، أمواج تروح، أخرى تأتي، ما شدني إرادة الأمواج في الإتيان بقوة مرة من بعد مرة، لا تكف بالرغم من انهزامها المتكرر، هذه المرة أحس بنشوة عند البحر. في طريق عودتي للمنزل رأيت بعض نوافذ وأبواب غير مغلقة، وضياء يتسلل منها، في رجوعي الذى تحفظه خطواتي أحسست بما يؤنسني، وروحي تعود لي على مهل مع خطواتي المتوالية.....

عند المنزل، نظرت لشقتها، كانت أنوار تلمع، رايات، أصوات وزغاريد، عروسة وعريس، ضحكات لا ينتهى ترديدها، ولا ينقطع رنينها في أذني، وأنا أتساءل: هل زفاف حبيبتي الآن؟.

أصعد الدرجات بسرعة...

في الظلمة أرى عيوناً تبرق لقطط تتنازع على السلم، فأشم رائحة دمائها التي تنزف من جراء نزاعها، أرى جرادل القمامة مفتوحة الأغطية وملقاة، أرى بقايا خضروات وفواكه وطعام وسكاكين على البلاط، أرى شخصين يتدافعان، واحد يكاد يقتل الآخر، لكنه يكتفي بأن يأخذ النقود، وأرى فتاة منكوشة الشعر تقف أمامي، تغريني بأن آتي لداخل شقتها، أرى نساء يتشقلبن على البلاط. كل ذلك رأيته، والظلمة حالكة.

هل هي حمى، ما أراه ليس بحقيقة!

وصلت لباب شقة حبيبتى، وجدتها تنتظرنى، قالت: كنت أريد أن أراك، وأشارت إلى الفرح، كان مقاماً فى الشقة المجاورة لشقتها. هل كانت تنتظرنى فعلاً أم هى أوهام وأضغاث حمى؟! السخونة فى جبهتى وجسدى كله. تلمست بيدى ما بالأمام، تلقفنى شىء ما دافئ، كانت هى، وبأناملها الرقيقة منحتنى وردة واحدة.

همستُ لها: آه من وردتك التي لها كل ألوان قوس قزح.

لم ترد على كلماتى.

فهمستُ لها ثانيةً: أنت لى الحياة التى فيها كل الألوان مثل وردتك التى لها كل ألوان قوس قزح.

فقالت بصوت واضح النبرات: وردتى لها اللون الأحمر الذى هو رمز الحب.

وأكدت ذلك مرات، ثم أكدت لى بأنها تحبنى مرات.

الحقيقة أن حبيبتى وطنى تشملنى بحبها وتحتوينى، وعلى خلاف مع كل ما ساورنى من شك، وبالرغم من كل خياناتى.

لم أتعلم!

النافذة

هل ما يتحقق لنا له المعنى المخالف لذلك الذى ندركه بالوهلة الأولى؟ أحياناً يكون الضوء ضعيفاً أو من كثرة الأحداث وتعارضها فلا يفهم إلا ذلك المعنى الأول أو لا يكون له مدلول على الإطلاق، وأحياناً أشخاص قلة أو ظروف توفرها الصدفة يكون لها الفضل فى أن تعطى للأشياء والأحداث المعنى الأعمق، وكان خفياً من قبل، فيثير فينا إحساساً قد يكون جميلًا مبهراً، وقد يكون مؤلماً.

من الهيئة التى تقع بالقرب من ميدان العباسية خرجت أنا ورئيسى فى العمل الأستاذ محمد قدرى جابر. هذا هو اسمه الثلاثى، لا أحد يعرف كيف استقر فى أذهاننا هذا الاسم الطويل! بالرغم من ذلك كنا نناديه باسم واحد، كنا أحياناً نناديه بالأستاذ محمد، وبالأستاذ قدرى أحياناً أخرى، والأستاذ جابر مرات، وفى الأكثر بالباشا. هو الحاكم الآمر الناهى، كل ورقة من وارد أو صادر لإدارتنا يطَلع عليها، وبصمته عليها كلها، فهو يأمر بتنفيذ خطوات لم ترد بعقولنا ولم نعتد عليها، أو يعيد صياغة الكلمات بعناية وتؤدة حتى لو لم تكن تستدعى الأهمية أن يتولى الأمر بنفسه، لكنه الإحساس

بالواجب الكامن فى نفسه. وهو أيضاً يراجع المذكرات، بالإضافة إلى إنه ينظم الأوراق فى الدوسيهات ليضعها فى الأرشيف الذى لم يكن موجوداً من قبل، أرشيف ضخم أنشأه بنفسه. وهو ينصح بل قد يفرض الكيفية التى نتعامل بها فيما بيننا. أمور وأمور....، فأصبح الباشا. ورغم إنه حاصل على مؤهل متوسط ومدة خدمته ليست طويلة إلا أن الأوامر بأن يقوم هو بأعمال المدير العام لإدارتنا بالرغم أن الكثير كانوا يرغبون فى أن يحظوا بذلك، لكنه الباشا. وهو عضو قديم فى أحد الأندية العريقة، ولأسرته مكانة اجتماعية عالية، له شقة معظم أثاثها عربى تتمتع بأصول الديكور الرفيع، أركانها مليئة بأنواع مختلفة للنباتات وأحواض السمك. له من الأبناء مهندس وطبيبة، إنه الباشا. عنده سيارة الهيئة الخاصة به التى تقله منها وإليها، كما يمتلك سيارة رينو لمشاوير المساء والعائلة، يقول بأنه يحب قيادتها بالرغم مما لهذا النوع من السيارات من خفة فى الحركة، يقول بأنه يحبها لجمال شكلها وقوة موتورها، طبعاً فإنه.... أحياناً عندما تتعطل سيارة الهيئة وتحتاج لإصلاح نخرج من الهيئة، أنا وهو، نتجه للموقف ليستقل كل منا الأتوبيس لوجهته.

فى إحدى تلك المرات بطريقنا أنا وهو لموقف الأتوبيس كانت خطواته يشوبها تردد وبطء على عكس عادته بأن يكون سريعاً ويتجه لهدفه مباشرةً، وصفحة وجهه اعتراها تجعد شديد، ماذا كان ينغصه؟ وكان يمسك بالمجموعة القصصية

التى أعطيتها له من قبل بعناية شديدة، بالرغم أنى اشتريتها إلا إنني لم أتذكر من العنوان سوى كلمة (رشق)، الأغرب أنى لم أتذكر من اسم المؤلف سوى (محمد)، (محمد) هو فى الأغلب اسم لأولاد أخى وأخواتى، هذا الاسم منتشر فى بلادنا.

الطريق امتد أمامنا فى ممر بين مجموعة من المبانى الحكومية، بنهايته عدة شجرات كثيفة الأغصان والأوراق تخفى وراءها شارعاً ضيقاً من يعبره يصل لموقف الأتوبيسات الذى من خلفه تقبع مبانٍ سكنية صغيرة. ومن ورائنا كان مبنى الهيئة يرتفع للعديد من الأدوار، رباعى الأضلاع، وحوائطه بلون أبيض شاهق. كنا نأخذ خطواتنا، تركنا خلفنا العمل ونظامه، ونظافة المكان، والأوراق المرتبة على المكاتب، والدوسيهات الموضوعة بعناية بالأدراج والأرفف، وعلاقاتنا التى تظهر منضبطة بسبب تواجد الباشا. ومن خلفنا أيضاً كانت جموع الموظفين الذين يسرعون نحو منازلهم، كل واحد أو مجموعة فى اتجاه، وأنا والباشا وحدنا نمشى فى هذا الممر الطويل.

وكان صدى لخطواتنا يعلو فى الأجواء، فيطرق الأسماع، ترا.. ترا.. تراك.. تراك...، لا أعرف لماذا خطر لى بأن هذا الصدى يحذر من شىء ما!

عندئذ لا أعرف لماذا تذكرت مصطفى!

هو جار لى، نسميه (هيمه)، شاب استكمل تعليمه المتوسط بعد سنوات طوال وعذاب. كان لاعب كرة قدم فى ناد

تمتلكه شركة لها صيت، فريق الكرة لهذا النادى لا يحظى بجماهيرية كبيرة بالرغم من انه حصل على بطولة الدورى مرةً متحدياً الصراع الشرس بين النادى الأهلى ونادى الزمالك واستقطابهما لتلك البطولة. ثم سافر إلى دولة فى شمال أوربا، قال إنه تزوج هناك، وأن لديه من زوجته الأجنبية أبناء، لم نر زوجته أو أبناءه أبداً. وعند عودته وحيداً لتستقر حياته هنا فتح محلاً لبيع الملابس، يفتحه ليوم ولأيام أُخر لا يفتحه. تزوج سيدة من الصعيد، لم ينجب منها، ثم طلقها، أشاع يوماً أنه سيتزوج فتاة من أسرة راقية، لم نشهد له حفل زواج، ورآه البعض فى موقف مخجل مع سيدة لها سمعة سيئة. يتشاجر كثيراً مع أمه وأخوته، ثم ينسحب، ليمكث طويلاً فى شقته التى تتكون من حجرة وصالة فى الدور الأرضى، وإذا خرج نراه هائماً هنا وهناك، فكان اللقب (هيمه).

فى هذا الصباح فتحت نافذة حجرتى، رأيت السماء، فيها غيوم كثيفة بلون بنفسجى قاتم، وضياء الشمس يتسرب على استحياء. ماذا حدث؟! هل الجو ممزوج بالأتربة وأدخنة المصانع والمدابغ المتناثرة فى منطقتنا؟ أم هذا من تأثير حرق بقايا نبات الأرز الذى أصبح عادة فى بلدنا؟ سمائى أحزنتنى، لذلك لم ترتفع عيناى نحوها إلا قليلاً، تهربت منها نحو البيوت والمبانى التى تتزاحم وتتكالب على بعضها، ثم حجرة (هيمه) التى فى الدور الأرضى القريبة من أسفلت الشارع، رأيته من نافذته المفتوحة عارى الصدر، وهو على

الفراش، يتغطى نصفه السفلى بملاءة وسخة، لابد أنه كان عارياً تماماً، هناك بالقرب نافذة مغلقة بإحكام لامرأة مطلقة، من نافذة أخرى تطل امرأة ممتلئة معروفة لدينا بما لها من خصوبة شديدة، حملت بأول مولود لها في يوم دخلتها، كانت هذه المرأة تتجه للجهة الأخرى بعيداً عن مصطفى، لكن كل حين كانت تلتفت لترمقه وهو في نصف عريه بحجرته.

آه مما حدث في الصباح. رأيت أم(هيمه) تدخل حجرته ليعلو صوتها صارخاً، سبته لسبب ما، فرفع هو الملاءة حتى غطته، ثم قام محاولاً ألا يتكشف جسده، ارتدى ملابسه، انسحب خارجاً، اندفعت خطواته على الإسفلت، وكان يسب هو الآخر.

هذا ما تذكرته وأنا والباشا معاً، والممر الممتد أمامنا بين المباني الحكومية، ليس فيه سوانا، وكانت يده تمسك بالمجموعة القصصية بيديه اللتين استوقفتا انتباهي عندما رأيته لأول مرة، أصابعهما طويلة نحيلة إلى حد شديد، بهما شعيرات سوداء نافرة، على العكس كان الكفان عريضين، قلت لنفسي عندئذ: تلك اليدان حساستان، وهذا الرجل فنان، موسيقى، يجيد العزف على آلة وترية، ما الذى جاء بهذا الرجل للعمل بالهيئة؟! ثم هذه المجموعة القصصية التي كان غلافها فيه تمزيق وأوراقها صفراء، اشتريتها مصادفةً أو بلحظة نزق صرفت فيها مبلغاً لشراء كتاب ليس سوى أوراق ملقاة لعدة سنوات على الرصيف أمام كشك لبيع السجائر والجرائد والكتب، قرأت صفحات منها، تركتها

بإهمال على مكتبى، ثم وجدت الباشا منكفئاً عليها يقرأ، عندما انتبه لوجودى أشار بيده نحوى فى علامة النصر، فمنحته الكتاب لرغبتى فى إرضائه، فشكرنى مرات. الباشا أثار تعجبى عندما رأيته أول مرة بيديه الحساستين، وكذلك هو فى إصراره على التمسك بهذه المجموعة القصصية.

قال: فى سيرنا هذا وحدنا فى الممر كأننا نغنى بما نفوسنا، ونود ألا يسمعه الغير، كأننا نعيش القصة الأولى فى هذا الكتاب.

كانت عيناه جاحظتين، وأخذت شفتاه تلهجان بكلماته مادحاً القصة الأولى بالمجموعة، مما قال إن لها عمقاً وبعداً لا يدركه إلا كل متأنٍ حصيف، فبطل القصة يسير فى الشارع بالليل، وروحه منتكسة لما يدور بالبلاد، وعندما انقطع التيار الكهربائى راودته الرغبة بأن يغنى، فعل، غنى بصوت رخيم حلو، الغريب أن ارتفعت أصوات أخرى رخيمة وحلوة أيضاً بأغنياتها، وذلك فى الظلمة. وقال الباشا إن هذه القصة تصور الكبت والخوف من رجال الأمن فى البلاد، فالقصة تبوح بأنه لا فرصة للبوح بالأمانى والأحلام عن الحرية والعدالة إلا فى أغانينا فى الظلام. عندما تكلم الباشا كنتُ صامتاً. سمعت من قبل أن الباشا عنده مكتبة ضخمة بمنزله، لا أعرف لماذا اعتقدت بأن هذه المكتبة قد ورثها عن أبيه أو جده، وأنه لا يقترب منها، لكنه فعلاً يهتم بالكتب اهتماماً شديداً. هذا الرجل قلت لنفسى من قبل إنه فنان، وها هو ذا يفاجئنى

أيضاً بأنه قارئ نهم وله ملاحظاته القيمة على ما يُكتب!

أنا والباشا كنا نسير في الممر الطويل في سبيلنا إلى مساكنا...، يتردد صدى خطواتنا، ترا.. ترا.. تراك.. تراك.....، وأيضاً انبعث لسمعي صوت خافت، دوم.. دوم.. دوم...، هذا الصوت لا أعرف كنهه؟! كان يأتيني كأنه صوت ضربات لمعول على شيء صلب، أم هو نبضات قلبي التي علا إحساسي بها! واستمرا معاً الصدى المحذر والصوت المنبعث، ترا.. ترا.. تراك.. تراك..... دوم...دوم.. دوم.....

في بداية طريقنا اعترضنا رجل يلبس جلباباً مرقعاً، يحني قامته، يمد يده لنا، يعلو صوته بدعوات بأن يحل علينا الفرج، ثم أخذ يتابعنا بإلحاح، ونحن غير مباليين، فكف عن المتابعة، وسمعناه من خلفنا يلعن، عادة ظهرت عندما بدأت الحكومة تعلن الكثير عن إنشائها لمشروعات، ومن أجلها فرضت ضرائب جديدة على الموظفين والبسطاء من الناس، تستثنى منها أصحاب الأموال وذوى الشأن، فزاد الضيق، وكثر المتسولون وعاداتهم.

قال الباشا وقد زاد تجعد جبينه: أرأيت الرجل يستطيع أن يعمل! لكنه يتسول! هذا هو الفقر وضيق الحال.

ثم قال: عندما يضيق الحال يصبح الحال من المحال.

والطريق الذى يشبه الممر امتد أمامنا طويلاً. ترا.. ترا.. تراك.. تراك..... دوم...دوم.. دوم.....

وتوالت كلمات الأستاذ قدرى بأن بلدنا استفحلت فيها ظاهرة التسول، وهذا لا يكون إلا فى البلاد الفقيرة التى يصعب فيها الحصول على عمل وأجره، هكذا الفقر يكون قرينه أن تظهر شخصية الفهلوى الذى يرى بأن لا بد من حصوله على ما يريد بدون بذل جهد، والفهلوى لا يهمه الغير، كل ما يهمه أن يحصل على مراده. والمفروض أن نتحمل ونجتهد فى العمل ونتعاون ونكسب، وهذا هو السلوك القويم للناس.

وقلا: هل فهمتنى؟

وكنت قد فهمت ما يقصده، عندما يضيق الحال يصبح الحال من المحال، النقود ونقصها أدى إلى ظهور وانتشار شخصية الفهلوى الذى يريد أن يحصل على كل ما يريده، ولأن المتاح قليل، فيريده هو لنفسه بأى طريقة، وهكذا يضيق الحال بشدة على الجميع. الأستاذ محمد بدا لى كرجل من الصالحين ينبه إلى ما خفى عن كثير من الناس.

وقال الباشا: عيب هذا البلد قلة ثرواته، وأيضاً قياداته، اعتبروا البلد تورتة لهم، فالمتاح قليل، فليكن أغلبه لهم، بل كل رئيس يريد أن يترك التورتة لأحد من طرفه، فذاك ترك البلد لأحد أعضاء جماعته الذين قاموا بانقلاب عسكرى، وذاك كان يريد أن يتركها لأحد من معارفه ومن مواطنى محافظته، وذاك كان يريد أن يترك التورتة لابنه، شخصية الفهلوى فى أبرز صورها، وسرت هذه الشخصية للشعب، فى البلاد الفقيرة تظهر شخصية الفهلوى فى أعلى صورها.

وعلا صوت الباشا: المثل الشعبى القديم كان بأنه أنا ومن بعدى الطوفان، تغير عند ظهور الفهلوى، الذى لسان حاله يقول بأن أنا الطوفان، وليس من بعدى شىء.

وخطر فى بالى بأن الأستاذ محمد قدرى جابر له أيضاً آراء سياسية واجتماعية قيمة!

ثم سمعته ينتقد العديد من الأشياء....، لم استوعب منها إلا القليل مثل أن الحكومة عليها أن تدير ولا تملك، وما هى إلا خادم للشعب لكنها تستأثر بالكثير لنفسها، ولا تترك للشعب إلا الفتات .....، وشعرت بالخوف من أن مكروهاً سيصيبنا من جرأته، ولا يزال الصدى والصوت المنبعث مستمرين ترا.. ترا.. تراك.. تراك.....دوم...دوم.. دوم.....

ووصلنا للشجرات الخضراء التى فى نهاية الممر، سمعته يقول وهو يشير إلى جميع الاتجاهات: كما قلت من قبل هذا قدرنا، ألا ترى؟!

وتلفت حولى، ماذا كان يقصد؟ حولنا الزحام شديد، عند المحلات كثير من المتفرجين وبداخلها قليل من المشترين، باعة الخضروات والفواكه الرخيصة يتحلق حولهم الناس، الوجوه كالحة، الأجساد تتصبب بالعرق، الأصوات صاخبة، الأتوبيسات تمرق بما فيها من تشابك وتصارع الأجساد، وبأبوابها يكون التعلق والتدافع، بالموقف تنتظر الأتوبيسات كثيراً، وهى مكتظة بالناس، السائقون يتباطئون ليمضى الوقت

لعل الحرارة تخف. الأمور كالمعتاد.

قال الباشا: انظر.

كنا قد وصلنا للطريق الضيق الذى يقع قبل موقف الأتوبيسات، وظهر تاكسى (هيوندای) له مقدمة منبعجة وفانوس أمامى مكسور، توقف حيث كان سائق التاكسى يريد أن يمر من أمامنا، لكن عسكرى المرور أشار له بالتوقف كى يسمح لنا بالعبور، فصدر صوت السرينة المزعج معبراً عن امتعاض سائق التاكسى من تصرف عسكرى المرور ومنا.

قال الباشا: هيا نعبر.

أخذنا خطوتين، ثم تراجعنا، فقد تقدمت تلك المقدمة المنبعجة للتاكسى، فأخافتنا، وارتفع صوت صفارة العسكرى يؤكد أحقيتنا فى العبور، فتوقفت مقدمة التاكسى، قال الباشا: هيا مرةً ثانيةً، فكان ما تحقق من قبل، وكان تصارع صفارة العسكرى وسرينة التاكسى من أجل أن يعلو كل منها على الأخرى، وأنهى سائق التاكسى الموقف بأن مر قبلنا بالرغم من اعتراض عسكرى المرور وحقنا فى العبور.

قال الباشا: أترى؟

لقد كان التصرف السائد الذى تكلم عنه من قبل، أنا الطوفان.....، وعرفت قصده بأن ذلك قدرنا. أحسست بضيق وحزن. وطبطب الباشا على كتفى. الأستاذ جابر حاول أن يرضى خاطرى، لقد كان تصرف الأستاذ جابر بجبر الخواطر.

ثم كان سؤال الباشا: هل ما أصابنا مرض أو لوثة، أم ماذا؟!

لم أعرف بماذا أرد.

ومر أتوبيس بسرعة لداخل الموقف، كان الأتوبيس الذى سيستقله رئيسى إلى مسكنه. احتفظ الأتوبيس بسرعته الشديدة وهو يمر من خلال مساحة مليئة بالماء القذر. ووجدت رئيسى فى العمل يندفع مع غيره نحو الأتوبيس غير مبالٍ بالماء المستثار، ولم يهتم برجل عجوز يندفع أمامه واضعاً صندوق فوق رأسه يسقط منه أشياء، بعضها على الباشا الذى يرتدى بذلة فاتحة، كل ذلك فى محاولة أن يحجز لنفسه مكاناً للجلوس بالأتوبيس، الباشا نسى وقاره وسلوكه المعتاد المترفع، لكن فى اندفاعه لم يكن هناك تخبط أو دفع للآخرين. ورأيته وهو بداخل الأتوبيس يلتفت لى، يزم شفتيه، ويرفع أصبعه، فقلت لنفسى إنه يحذرنى ويؤكد لى ما قاله من قبل، الفقر، وشخصية الفهلوى الذى يرغب فيما لا يكون له من حق، وكان قد اختفى التجعد الذى أصاب وجهه من قبل، ارتاحت ملامحه بعدما باح بما كان يضايقه ويشغل ذهنه. وكان مبنى الهيئة الضخم بعيداً متعالياً هناك، ومن أمامه كان ذلك الشارع الذى تردد فيه صدى لخطواتنا، ترا.. تراك.. تراك...، والصوت الذى انبعث، دوم.. دوم.. دوم.....

هناك من يقول بأن المعانى منها ما يأتى مفاجئاً، فيكون الإدراك قاصراً على الفهم، لكن اللحظات تتوالى، وما بدا صعباً قد يصبح سهلاً، لكن علينا بالتروى.

استطعت أنا الآخر أن أستقل الأتوبيس الذى يقلنى إلى حيث أعيش، حى جنوب القاهرة الشديد الفقر والازدحام. وقفت مغمضاً عينى محاولا أن أتناسى التكدس المضايق بداخل الأتوبيس، فشلت. كان خط سير الأتوبيس طويلاً، ويمتد بداخل كثير من الأحياء الفقيرة وناسها الذين يثيرون فى نفسى الانزعاج.

فتحت جفونى، كان الأتوبيس المندفع قد اجتاز مسافة من شارع الجيش العريض، ثم انحرف نحو اليسار فى شوارع أضيق أعرف أن من بينها حارات لا تسمح بمرور اثنين بدون أن ينحاز أحدهما إلى جانب مرتكناً على حائط قريب ليمر الأخر، تلك الحارات هواؤها راكد، بيوتها قديمة من دور أو اثنين، أبوابها بترابيس معدنية كبيرة خوفا على الأشياء القليلة الرخيصة التى توفرت بطلوع الروح ، أبوابها لا تُفتح إلا قليلاً ، وخاصةً بالمساء، يخرج الرجال ليتربعوا أمامها، والنساء بالقرب، جميعهم يرغبون بالتمتع بنسمات الهواء المنعشة.

فى صباح ذلك اليوم عندما كنا بالمكتب فى العمل، وقفت أنا عند النافذة بستارتها الغامقة بثناياها الكثيرة التى تتماوج بعضها فوق بعض لتخفى منظر الأشياء من خلفها. هل الأشياء هكذا؟ هناك ما يخفيها، لابد أن سيأتى الوقت الذى سيزول فيه ذلك، وقد يحدث هذا ببساطة وعفوية، فيكفى أن تمتد يدى لتزيح الستارة لتظهر الأشياء التى من خلفها.

فى صباح ذلك اليوم جاءت فاطمة، جلست بجانبى فى ثوبها الفقير، وجسمها الممتلئ الذى يثيرنى. إنها تعيش فى

بيت أكثر فقراً من بيتى، أمها ماتت بعد فترة عانت فيها من مرض استهلك علاجه أكثر النقود التى يملكونها، ولم تستطع فاطمة أن تستكمل موضوع زواج بسبب ضيق الحال. كانت تنظر لى بعينيها الواسعتين فى نظرة مستطلعة، عيونها عيون أطفال، بريئة، تترقب. أنا وهى كنا فقط بالإدارة، أين ذهب الزملاء والباشا؟!

قالت فاطمة: الأسبوع الماضى كنت فى بلدنا، لا تعرف مدى سعادتى عندئذ.

: أين أقمت؟

: فى بيت أعطوه لنا بعد التهجير.

قالت كلماتها , ووجهها الأسمر يتوهج، وصدرها يرتعش من تحت (البلوزة) الرقيقة، إنها تثيرنى بدون أن تدرى. فاطمة من النوبة التى فى نفوس أهلها غيظ وحسرة لترحليهم قسراً من بيوتهم التى كانوا يعيشون فيها قبل بناء السد العالى. قالت فاطمة هذا من قبل، وقالت أن أهل النوبة لا يعتبرهم باقى المصريين أنهم منهم، وأننا نمثل بالنسبة لهم الاحتلال والتحكم فى مصيرهم، وأن الرجل منهم قد يتزوج مصرية، احتمال ضعيف، لكن من المستحيل أن تتزوج النوبية إلا من رجل نوبى، وهذه هى العنصرية.

سمعت صوتها ينبعث: ذهبنا إلى هناك حتى تنسى أختى ما مرت به من معاناة بسبب رفض أهل شريف أن يتزوجها،

وقالوا عنها إنها من النوبة التى مازال أهلها بالجلابيب والعمم.

شريف الذى كانت تتكلم عنه موظف بإدارة مجاورة، استطاع الحصول على مؤهل متوسط بعد سنوات وسنوات، عذره أنه يعمل فى هيئتنا بالصباح، ولا يتبقى من الوقت الكثير حتى يستطع أن يذاكر. ما نعرفه أنه شديد البلادة، ويتعرض كثيراً لتأنيب رؤسائه والسخرية من الزملاء.

قالت فاطمة: فى إحدى الليالى هناك أقيم فرح نوبى ورقصنا حتى طلوع الفجر.

التفت برأسى عنها، وبدون إرادة منى انسدلت جفونى، وكان سواد، ثم تراءت لى فاطمة وسط جمع فى ساحة حولها بيوت، وبالقرب سفح جبل، وهى ترقص فى رداء أبيض، لم أرها ترتديه من قبل، ولم أر مثيله. هى ترقص، ونهداها النافران يتراقصان، ورجال ونساء يصفقن بأيديهن. وأصوات دفوف ترتفع. كنت أحلم!

سمعت صوتها: على كل حال عدنا، وقد تحسنت نفسية أختى كثيراً.

فتحت جفونى، وعدت للنظر إليها، كان قد ظهر تقطب فى جبينها، كان حلماً جميلاً. وهى تكلمت، لم يصلنى من كلماتها إلا قليل. بلا مقدمات مددت يدى لأصابع يدها، أمسكتها، ضغطت. هى لم تحد بعينيها اللتين اتسعتا. كان ذلك فى عدم وجود الأستاذ محمد قدرى جابر، الباشا.

وجدت نفسى بعد حين أبتعد، أقول لها بأن تنتظرنى، ودخلت الحمام، فتحت الصنبور، فاندفع الماء فوق رأسى، تسرب الماء لفمى، ومنه لجوفى، عندئذ أحسست بضيق فى التنفس، لكنى أفلحت فى إخراج الماء المتسرب لداخلى، بعد فترة هدأت أنفاسى، وأخذت أزيح الماء الذى علق بوجهى، ثم أخذت أنظر لنفسى فى المرآة الموجودة أعلى الحوض، وراودنى خاطر: هل يمكن أن يخفى هذا الوجه أشياء وأشياء؟

وأخذت أحاور نفسى.

قلت: ماذا تريد منها؟

وأرد: لا أعرف.

: أتريد أن تتمتع بجسدها وعواطفها بلا مقابل أو التزام؟!

: كف عن مضايقتى.

: أنت تتهرب من الإجابة.

: فى الحقيقة أنها تثيرنى، ولا أعرف ما هدفى!

: تجرأ وتقدم للزوج منها.

: لا أستطيع.

: هل ذلك لأنها نوبية؟

: نعم وأسباب أخرى.

: أنت تغالط نفسك.

: لا تضغط على.

: أنت تفعل مثلما تفعل حكومتنا!

: كيف؟!

: تأخذ أرضهم، وبلا التزام تقوم بتهجيرهم، تبعثرهم في أنحاء البلاد، وذلك من أجل إقامة السد العالى لتوفير الكهرباء والماء اللازمين للزراعة وتشغيل المصانع الكبيرة لنا، لذلك هناك حاجز بيننا وبينهم.

: هكذا الأمور تسير.

: حكومتنا لا تهتم بمصلحتهم أبداً، بعض النوبيين حاولوا أن يستفيدوا ويعيشوا هناك من صيد الأسماك التي توفرت بأحجام كبيرة في بحيرة ناصر، الفشل أمامهم أمامهم، فشلوا في توزيعها بالأسواق البعيدة لعدم مساعدة حكومتنا لهم بتوفير أجهزة التبريد ووسائل النقل الثقيلة.

: هكذا تسير الأمور.

: إننا لا نعطيهم فرصة حياة، لذلك لا بد أن يكرهوننا ويكرهون حياتهم.

: هكذا تسير الأمور.

: افعل أنت شيئاً، ولا تخضع للأمور الخطأ.

: كلامك ثقيل على قلبى، ولا أفهمه، الحل أن تترك الأمور على ما هى عليه.

: لا تردد كلماتك التى لا قيمة لها بأن هكذا تسير الأمور وأن تترك كما هى.

: لا أستطيع، لا أستطيع.....

ولم استكمل وأتحمل انشقاقى وعذاب هذا التحاور، خرجت من الحمام عائداً لفاطمة، وجدت هانى السيد واقفاً بجانبها، ذقنه غير حليقة، شعره متهدل على جبهته، يقول لها شيئاً مضايقاً. كان الأمر قد وصل بينها وبين هانى إلى حد الانفعال والتكلم بصوت عالٍ.

قال هانى متهكماً: أعرف أصلك، إنك منهم.

ردت هى: نعم، هل هذا عيب؟

: النوبيون جذورهم من الزنوج الذين يعيشون فى أدغال أفريقيا، أنت زنجية.

: يعجبنى أصلى، وأنت ما هو أصلك؟

: أمى من الأتراك الذين كانوا أسياد البلد.

فقالت فاطمة: وهل تعتقد إننا الخدم العبيد؟

وقالت: لى زوج أخت يعمل فى المخابرات، ويستطيع بكلمة منه أن يُلقى بك يا أستاذ فى الحبس.

وقالت: اذهب لمكتبك يا أستاذ، يكفى إنك لا تعرف كيف تؤدى عملك، ولا أن تراعى منظرك يا هانى يا سيد!

وعلا صوتها مكرراً: اذهب يا هانى يا سيد....

قالت فاطمة كلماتها الأخيرة فى ضيق، احمر خداها، زاد اتساع عينيها، ارتفع أصبع يدها نحوه فى تهديد وتحدٍ واستعلاء. وهانى السيد ارتسم على وجهه ابتسامة مائلة، انسحب بخطواته معطياً ظهره لنا، فكانت الرؤية لفتق ببنطلونه البالى، وعندما وصل للباب وقف عنده.

وقال: لماذا تجلسين مع هذا الزميل الذى لا يُكتب اسمه فى استمارات المكافآت؟

وقال: لا أعرف ما يعجبك فيه!

كان ينتقدنى، وكنت لا أعرف بأن استمارة مكافآت قد كتبت، وأنى استبعدت من الأسماء المدونة فيها، ألجمتننى المفاجأة.

وتوقف هانى عن الكلام، وانصرف.

جلسنا أنا وهى صامتين لفترة....

ثم قلت: أريد أن أخبرك بشىء، اليوم هو عيد ميلادى.

: كل سنة وأنت طيب، وأنا أيضاً أريد أن أخبرك بشىء لكن أخاف أن تزعل.

وانتظرت كلماتها التالية ...

قالت أخيراً: لم يسجل الأستاذ محمد اسمك باستمارة المكافآت الأخيرة.

: لماذا؟

: قال بأن الجميع قد قاموا بعمل فاستحقوا فى مقابله المكافأة، وأنت لم تفعل شيئاً.

فى أثناء حديثنا كانت عيناى ترمقان جسم فاطمة وأصابعها الرقيقة، لا أعرف كيف امتدت يدى لتمسك يدها ثانيةً. هى زاد اتساع عينيها، سحبت يدها، أسرعت نحو الباب، عنده وقفت، التفتت نحوى، كان بعينيها دهشة وانتظار، أعرف إنها تريدينى، لكنى لم أفعل شيئاً، فانصرفت وهى تزفر. أنا ارتكزت بكوعى على سطح مكتبى، دعكت جبهتى، كان ذلك فى وقت مسروق من نظام الأستاذ محمد قدرى جابر، والانضباط الذى يفرضه وجوده. كان ذلك فى الصباح. لا أعرف لماذا انتابنى إحساس بأن الباشا لابد أن يعرف كل ما جرى.

فى هذا الصباح بعد أن انسحبت فاطمة جاء الباشا ليجلس بالقرب منى، كنت أجلس بالجانب الأيسر من الحجرة حيث يوجد مكتبى، ومن خلفى الحائط الذى به شرخ يضايقنى، هل لأنه يمكن أن تختبئ وتعيش الحشرات فيه، أو لأن منظره قبيح، لا أعرف!. كان الباشا يمسك بيده المجموعة القصصية، هكذا أصبحت عادته، يأتى كل يوم ممسكاً إياها، كل حين كان يقرأ فى صفحاتها، وبيده الأخرى كان يمسك بشىء لم أتبينه.

قال: كل سنة وأنت طيب.

وأعطانى ما بيده، كانت هديته لى. الباشا تذكر عيد ميلادى، كان يريد من تصرفه هذا أن أفهم، العمل والمجهود والمكافآت شىء والمجاملات شىء آخر. وهو يجلس بالقرب منى كنت أنتظر أن تأتى كلماته بالتوبيخ لما جرى بينى وبين فاطمة، لم يحدث، ولم أتعرض أنا لموضوع المكافأة. الأستاذ محمد قدرى جابر هو الوحيد بالإدارة الذى كنا جميعاً نتذكر يوم ميلاده، نحرص على التجمع كلنا فى هذا اليوم، نأتى بتورتة كبيرة وهدايانا، ويكون هو المحور، يكثر فى التحدث مع الجميع بخفة دمه، يكون الهزار، لا ينسى أن يتكلم فى أمور العمل، يناقشها، يبدى رأيه، ونحن كذلك، ويكون هو الغالب فى النهاية، لكن فيما بيننا نادراً ما يتذكر أحد يوم ميلاد الآخر، ويجامله. وها هو ذا يجلس بالقرب، والصمت بيننا.

أخيراً سمعته يقول: سأقرأ لك قصة من كتابك.

توالت كلماته، بطل القصة لرجل يدخل حماماً عمومياً، فيجد هناك من ينتظر، رجل منوط به نظافة المكان وحراسته، يسرع نحو بطل القصة، تمتد يده بطبق صغير، وعلى هذا الطبق كان منديل ورقى، الغرض من كل ما يفعله هو المطالبة بالنقود، فلا يبالى بطل القصة، يدخل المساحة المخصصة لقضاء حاجته، يقفل من ورائه الباب، فيجد اليد تمتد بالطبق الصغير من أسفل الباب، فيزيحها، وبعدما يخرج ويغسل يديه يتقدم له الرجل بالطبق الصغير والمنديل،

فينفعل بطل القصة، ينهر الرجل، وعندما يلتفت بطل القصة للمرآة التى تعلو الحوض يجد وجهه مثل ما لوجه هذا الرجل المنفر. قال الباشا بأن القصة عن واحد يسأل نقوداً من الآخر فى إلحاح شديد، والحقيقة أن أغلب الناس مثله، يريد كل منهم الحصول على ما يريد من رزق عن طريق الآخرين، لذلك كان لبطل القصة وهذا الرجل الآخر نفس الوجه. وكثرت كلمات الباشا عن رأيه بأن القصة عظيمة.... وأنا كنت أحاول أن ألتقط ببصرى اسم المجموعة القصصية واسم المؤلف، وفشلت. ثم خرج الباشا من الحجرة، ويده ممسكة المجموعة القصصية بحرص، عجيب هو!

وصل الأتوبيس لشارع صلاح سالم العريض، اندفع فى سرعة غريبة مجنونة، إلى ماذا سيكون مصيرنا؟ وزادت سرعة الأتوبيس وهو يمر على الدراسة وقايتباى، وتراءى لى قبور كثيرة من بينها بيوت قميئة... ووصلنا لمحطة السيدة عائشة، بؤرة أخرى من الحال البسيط المحتاج، لكن من هنا بدأت الراحة، فقد نزل معظم الركاب ولم يتبق سوى القليل الذين جلس معظمهم على المقاعد. تحركت قليلا، لأتخلص من التيبس والألم اللذين أصابا جسدى نتيجة لحشرى وسط الأجساد. ولاحظت الفتاة الجميلة الممتلئة التى تقف بجانبى والشاب الذى وراءها، ليس بطويل أو قصير، نحيل، جاحظ العينين، يقف ملتصقاً بظهر الفتاة، لا يستجيب عندما طلبت منه هى بصوت خافت أن يبتعد، لا يلتفت لمن حوله

الذين قالوا له بأن يكف، هو لا يسمع، لا يرى، لا يحس، ملابسه وسخة وذقنه غير حليقة واحمرار بعينيه مما يوحى بإهماله لنفسه وسهر الليالى. هذا الشاب فجأة انتفض، ابتعد عن الفتاة، اندفع إلى أول الأتوبيس دافعاً من يعترض سبيله، وهو يصرخ بالسائق بأن يتوقف لأن محطته قد فاتت، نزل، لم يتوان أن يسرع عائداً فى الطريق المزدحم وسط الناس وصياحهم به والسيارات بسريناتها المحذرة من اندفاعه المتهور.

وكان بالقرب منى امرأة عجوز، لا يفصل بينى وبينها سوى متر أو أقل، ترتدى ثوباً أسود له جيب تبرز منه ورقة، أهى نقود؟ آه، ليس لدى منها الكثير، لا أعرف كيف سينقضى الشهر بما أملكه. تلك المرأة كانت شديدة الهدوء، تقف فى أضيق حيز ممكن، بين حين وآخر كانت تدفع بقدمها صرتها الكبيرة ذات الانبعاجات الكثيرة التى كانت تحت المقعد الذى تقف بجانبه لتبعدها عن أرجل من حولها، كانت تحرص ألا تضايق أحداً. مرت محطة وأخرى بعد السيدة عائشة، وصلنا لأول مصر القديمة، وهو حى شديد البؤس. بمجرد أن تخلى أحد الجالسين متجهاً للنزول من الأتوبيس تلك العجوز ضاقت جفونها، تناولت صرتها فى سرعة، جلست. ثم خلا المقعد الذى بجانبها، فجلست أنا الآخر. ووقع بصرى على الورقة التى تبرز من جيبها، لم تكن سوى نقود، ورقة بمائة جنيه. تلك المرأة وهى فى جلستها بجانبى أخذت تنظر للأمام، نحو زجاج البرواز الأمامى الذى بمواجهة السائق، واستمرت

فى ذلك. هل كانت تحاول أن تعرف ما هى المحطة القادمة لتستعد للنزول عندما تقترب محطتها المقصودة؟ وخطر لى أن محطتها هى الأخيرة، وهى فى الحقيقة تتعجل أن تأتى! وتساءلت فى نفسى: هل كان الافتعال بكل شىء فيها، هدوءها المرسوم، وأيضاً سلوكها السابق بعدم المضايقة لأحد؟ فهى أخذت تشرئب برأسها، يرتفع جسدها كل حين عن مقعدها، وهى لا تزال تنظر للأمام، كوعها يخبط بطنى، وكذلك الأشياء الصلبة بصرتها التي أخذت يداها تتمسك بها ولا تضعها أسفل المقعد الذى تجلس عليه، فأتأوه أنا، وهى لا تبالى. وانسلت الورقة ذات المائة جنيها من جيب المرأة جراء حركاتها المتوالية، هبطت على المساحة الصغيرة فيما بيننا، فامتدت يدى بخفة لتقبض عليها، تنسحب لجيبى لتسكن الورقة به، هكذا بتلقائية غريبة، وبدون تردد. وأخذت أوجه كوعى نحوها كلما ارتفع جسدها النحيل لأتمكن أنا الآخر من نغزها وإيلامها، هى لم تكف عن حركتها، وأنا لم أكف، بالرغم أنى كنت أحس بتأنيب ضمير عاصف متزايد..... عندما جاءت محطتى نهضت تاركا المرأة العجوز على مقعدها، لاحظت على زجاج النافذة القريبة الصورة المنعكسة لرأس الرجل الذى يجلس خلفنا، شعره أشيب ينبسط على عظام الدماغ، يزم شفتيه، يرفع أصبع يده نحوى محذراً. تلك الدماغ أعرفها، دماغ رئيسى فى العمل الأستاذ محمد قدرى جابر! التفت للجهة المخالفة لأرى وجه رجل آخر يجلس بالقرب، نفس الخد المستدير والأنف الطويل الحاد والشعر

الأشيب المنبسط على الدماغ، هو الآخر! حام بصرى فيما حولى لأرى باقى وجوه الراكبين، كل منهم كان له نفس الوجه الذى يزم الشفتين، والأصبع الذى يرفعه محذراً، جميعاً كانوا الباشا! وعاد لسمعى الصدى لخطواتنا أنا وهو فى الطريق، ترا.. تراك.. تراك...، وكذلك الصوت الذى انبعث، دوم.. دوم.. دوم...، وأسرعت بالنزول.

وأصبح الجو المحيط كما كان فى الصباح، غيوم كثيفة معتمة بالسماء، وأصاب بصرى تشوه للمرئيات! لكنى سمعت الأصوات واضحة.

المحطة التى نزلت فيها بحى روضة المنيل، وكان يجب أن أسير مجتازاً الشارع الرئيسى به، ثم كوبرى الملك الصالح، وبعده شارع فى حى هادئ يسمى (السادات) لأن شوارعه بأسماء سادة من الصالحين مثل عبادة بن الصامت و....، ثم كوبرى خشبى يعلو محطة مترو الأنفاق، ومن بعده يكون حى أبو سيفين بمصر القديمة حيث أعيش.

كانت البداية عند محل (سمر) بروضة المنيل، لم أر المحل أو صاحبه، لكن أعرف أن المحل كان يبيع لعب أطفال وأشياء مستوردة أو مهربة فى علب مطبوع عليها صور ملونة لامعة لمحتوياتها، لاقت طلباً فى شرائها، لكن الآن مما أصبح فى السوق من أشياء شبيهة أقل فى أسعارها جعل حال المحل راكداً، أصبح يعتمد على بيع المياه الغازية والبسكويت وأشياء من هذا القبيل. أعرف بأن ليس بالمحل كما كان من

قبل بناته الجميلات اللاتى كان الشباب من أجلهن يتجمعون بالمحل، يسترقون النظر، قد يشترون أشياء، يلتقطون الفرصة لمجاذبة الحديث معهن، لكنهن الآن جميعاً تزوجن. أعرف أن صاحب المحل يتواجد وحده الآن بالمكان بشعره الأسود الطويل المصبوغ، يبتسم، ينتظر، يمسك مسبحة بحبات كهرمانية كبيرة. اجتزت محل (سمر) ورونقه الذى بلى، وأنا فى تخبطى.....

ترا.. ترا.. تراك.. تراك..... دوم...دوم.. دوم.....

ثم كانت مكتبة (شهاب) التى يملكها عبد العظيم. أعرف أن بالمكتبة كتباً مدرسية بطبعات قديمة لا يقبل على شرائها إلا القليل وكراريس وأدوات هندسية معروضة بطريقة ساذجة، وأيضاً بعض كتب عن الكمبيوتر ونظام تشغيل إكس بى الذى أصبح من النادر استعماله. كالعادة لابد أن يكون عبد العظيم بنظارته السميكة العدسات جالساً فى استرخاء وبلا مبالاة بعدم رواج تجارته.

ترا.. ترا.. تراك.. تراك..... دوم...دوم.. دوم.....

أخيراً استطعت أن أجتاز طريقى حتى وصلت لحى السادات، أعترض طريقى ذلك المعوق ذو القدم الواحدة، لابد أنه مد يده العريضة نحوى، وصلنى صوته الخشن سائلاً مساعدته. أعرفه، إنه حمدى صديق (هيمه) وزميله فى السهر، هو يعرفنى، لكنه تصرف بفعل عادة التسول الذى

يمارسه معتمداً على إعاقته الظاهرة.

ترا.. ترا.. تراك.. تراك.....دوم...دوم.. دوم.....

أخيراً وصلت للبيت.

عنده وقفت، فعلى أن أصعد أدواراً عديدة، ارتكنت على حائط قريب آملاً أن يتحقق تحسن بحالتى، وتظهر المرئيات لى بصورتها الطبيعية.....

وجاء (هيمه) ليقف بالقرب.

سمعت صوته العالى: لماذا لونك مخطوف هكذا؟!

: لا شىء.

: أنت تحتاج إلى منشط، عندى منه شىء عظيم.

فضحكت فى سخرية، ثم ساد الصمت بيننا.

ثم سمعته يقول: نعم يا هانم.

فقد اقتربت امرأة، جاذبها (هيمه) الكلام، سمعت المرأة تسأله عن ثمن فستان معروض بمحله، فاصلته فى الثمن، هو اشترط كى يعطيها ما تريده أن تأتى له فى الليل، فضحكت مبتعدة.

وسمعته يقول: فرس.

ثم كان اقتراب محمود الطالب فى كلية الألسن ومعه فتاة تقاربه فى العمر وسعيد الذى لا نعرف مهنة له ويجيد الكلام والهزار، سمعت أصواتهم، لابد أنهم وقفوا بالقرب، وعلت

ضحكاتهم. انضم (هيمه) إليهم فى كلامهم وضحكهم . وتطور الأمر سريعاً. سمعت (هيمه) يتكلم مع الفتاة متجنباً غيرها.

ثم سمعت الفتاة تقول بصوت عالٍ: ما هذا؟

فسمعته يقول بصوى أعلى: أحسن سيجارة، ستعجبك.

فارتفعت أصوات مستهجنة وسباب، وتشابكت أيدى، فكان صراع ولكمات.

انسحبت أنا.

ترا.. ترا.. تراك.. تراك.....دوم...دوم.. دوم.....

وكنت أنهج أثناء صعودى السلالم...، بمجرد أن وصلت لحجرتى سمعت صوتاً يصدر من الحائط الذى على يسارى، يوجد به شرخ كبير يماثل الشرخ الذى بقرب مكتبى فى العمل، امتدت يدى لتعبث به، فانسل من الشرخ صرصور، أخذت ألاحقه بإصرار شديد فى محاولته للهروب منى، حتى استطعت أخيراً أن أخبطه بقوة، فهمد على الأرضية، وأنا أحدق فيه، كانت تفاصيله ظاهرة لى! عادت المرئيات لتظهر لى بكل تفاصيلها. وأخذت أتلفت حولى، رأيت السرير الوحيد الذى عليه المرتبة واللحاف المكوم ، والمقعد المتروك عليه قميص بإهمال، والدولاب المفتوح ضرفته لتظهر ملابسى القليلة، والمنضدة التى عليها طبق به بقايا إفطارى، كل ذلك كان واضحاً! عندئذ تذكرت اسم المجموعة القصصية، كان(رشق السكين)، واسم مؤلفها (محمد المخزنجى).

تلفت لمصدر الضياء، كانت النافذة التى تظهر منها السماء بلا غيوم والشمس جلية ساطعة، اقتربت منها، عندها وقفت، رأيت بيوت الحى المتهالكة بتفاصيلها، (هيمه) واشتباكه مع محمود وسعيد عند مدخل البيت، ثم مجىء أمه التى سبته، وصوتها الصارخ: ستدخل السجن بسبب ما تتعاطاه يا ابن.....، ثم انسحاب (هيمه) لحجرته.

همست شفتاى: إنه الفقر ونقص الفلوس.

وامتد بصرى بالأرجاء، كانت مصانع الفخار هناك عند المدافن، وفى جهة أخرى كان الكوبرى الذى يفصل بين حى مصر القديمة وبين روضة المنيل، وأتوبيس يجتازه، ودخان كثيف منبعث من مؤخرته. عندئذ تذكرت ما حدث، تحذير الباشا، الازدحام بالأتوبيس الذى أقلنى، تألمى النفسى من نغزى للمرأة العجوز، واستمرارى، وأخذى للنقود التى لا حق لى فيها، ثم الوجوه التى رأيتها جميعا بوجه الباشا، آه، لابد إن ذلك من تأثير تأنيب الضمير الجارف الذى تملكنى. وكانت يداى على المساحة ما بين رئتى، على مكان القلب، تضغطان بشدة، تستمر.....، وصوتى الهامس يردد: إنه أيضاً فقر النفوس.

كل ذلك وسمائى أراها بلا غيوم من خلال النافذة، وكان شعورى بالقشعريرة التى تصيبنا عندما يحل ليل الشتاء البارد.

المحتويات

الفقـراء..... ٥
الصـورة..... ٧
الكـرة..... ٩
الـوردة الجبليـة..... ١٣
الحواجـز..... ٢٧
هى والوردة التى لها كل ألوان قوس قزح..... ٣٩
النافـذة..... ٥١

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع